البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي

بقلم محمد المهدي مجذوب
(السودان)

ان البطولة تنصرف ، عند الخاطر الاول ، الى الشجاعة وهذا معناها الشائع القديم وما زال باقيا ، ولكن معناها قد يتطور مع تطور المجتمعات واختلاف نظرتها الى السلوك الانساني

فالبطولة سمو وتشوف للكمال ، ورياضة للروح والجسم معا ، او تعبير مكتمل عن طاقة قوية متفردة ، والشجاعة - كما أسلفنا - على اختلاف معانيها جوهر البطولة الفرد ، وبايجاز فهى صفة انسانية بارزة ، وقد تكون مادية قاهرة أو معنوية دافعة

ان البطولة العربية - على وجه العموم - بطولة حربية ، ولقد كانت القبائل فى هذه الجزيرة كالعواصف على الخيل والابل ، تطير بها الغارات اما لها او عليها ، ولذلك فقد كانت الشغل الشاغل للشعراء ، ولم تكن هذه الحروب خرساء تجمجم بصليل السيوف وصهيل الخيل ، وانما كانت ملحمة شاعرة تتطاحن فيها ألسنة الشعراء

ونحن نزعم ان أيام العرب ، المشهورة ، كانت ضرورة لتصفية القيم ، فلقد اكتمل النظام القبلى بكل مثاثره ، ووقفت القبائل وجها لوجه ، تعرض ما لديها فى زحمة التنافس ، وفى غمرة هذا التنافس الدائم قويت ملكة التعبير ، وصفت اللغة وأصبح الشاعر ذا خطر عظيم ، ولقد صدقت الحضارة العربية فيما بعد كل رؤاه

ان الشعر أشبه بهذا الانفعال ، والنثر هنا ليس بذى أثر ، ويوافقنا ان نأخذ برأى أحد النقاد المعاصرين - حينما ذكر عيشة العرب الاول واسماحها بالشعر لانه - كما قال - لغة العاطفة والخيال ، والعصر الجاهلى - وان كان له نثر خاص تقوم عليه الخطابة فهو ليس نثرا فنيا ، فالنثر عماده الكتابة والاستقرار ، ولذلك فنحن لا نلتفت الى هدير الخطباء ولا سجع الكهانة وانما نصغى - كما أصغت هذه الجزيرة فى بهر واعجاب - الى الشاعر وسنجد ، لدى هذا الرائد العظيم ، ما نبغى من ألوان البطولة

ان الحياة الجاهلية بما فيها من تطاحن ، جعلت الشجاعة راجحة بالفضائل الاخرى ، ويلى الشجاعة الكرم ، والكرم ضرب من الشجاعة ، وهاتان الفضيلتان شرطان أساسيان فى البطل الجاهلى يهتف بهما المديح والفخر ، ولقد ارتفع المديح والفخر الى مستوى عال ، فحين لا ينص المادح او الفاخر الى فضيلتى الشجاعة والكرم فنحن نراهما فى صفات أشمل وأكبر ، فالسيد والماجد والكريم والفتى كلها صفات تتضمن معنى الكرم والشجاعة ، وتعنى عند الجاهليين مرتبة فوق

مرتبة البطولة ، لانهم كانوا لا يطلقون كلمة البطل الا على الشجاع ــ شجاعة خارقة ــ فى القتـال

ولقد أفادنا صاحب القاموس ــ رحمه الله ــ فقال فى ذلك : انما سمى البطل بطلا لانه تبطل عنده العظائم ، ولان الاشداء يبطلون عنده ، وكذلك دماء الاقران تبطل عنده فلا يدرك ثأر لديه ، ونحن نزيد على ذلك ان البطل العـربى ــ كما يصوره الادب الجاهلى ــ تجتمع فيه صفات أخرى تجعل منه ذلك الانسان النادر، من هذه الصفات الكرم والنجدة ، والعفة فى مضارب القبيلة وميدان الحـرب ، وهو يتقدم على القوم ، ولم يفسده الترف ولا الفقر ، ساهر على قومه ، لا يشغله عنهم مـال يثمره او ولد يبغى له الرفعـة

ولقد كان لهذا البطل طراز خاص قلده فرسان النصرانية فى العصور الوسطى فالبطولة عند العربى ــ زيادة على انها شجاعة خارقة وقوة فهى ضبط للنفس وتنزيه ، وأخذ بالاخلاق الكريمة

ولقـد آن لنا ــ أيها السيدات والسادة ــ ان نرفع لكم صورا من البطـولة تخيرناها من الادب الجاهلى ٠٠٠ وهذه :

بطـولـة القبيـــلة :

هذا انسان قد عاش بـين قومه رجلا منهم ، يرعى وينتجـع الغيث ، ولا شأن لقومه هؤلاء بين القبائل ، وانه ليسمع كثيرا من يغنى بشرف هذه القبيلة او تلك ، انه لم ير تلك القبيلة ، ولم تعد منها عائدة اليه ، انما سمع شعرا ملأ نفسه تقديسا لتلك القبيلة واعجابا

ويغدو على قومه ذات يوم وقد هتف لسانه بشعر يمجد فيه قومه ، ويرفـع لهم تمثالا ضخما بارز الملامح يراه الحاضر والغائب ، ويراه صناع التماثيل فى سـوق عكـــاظ

وتجد هذه القبيلة المغمورة نفسها ، وتمسك بأستار الليـل توقظه ، واذا بنيران القرى ترقص أمام الخيام تدعو العابرين ، وتجتمع نساؤها يلعبن بالمزاهر كما يصنع فى الاعراس والرجال والولدان يتباشرون ، وها هى القبائل تقبل مهنئة ، لقد نبغ فى هذه القبيلة شاعر ، وهى تعرف الآن كيف تحمى نفسها ، وتتخذ لها أسلوبا رفيعا من الحياة تباهى به الآخرين

ولقد ضربنا لذلك مثلا ــ فى بحثنا المفصل الذى فى أيديكم ــ بالشاعر الحرث ابن حلـزة اليشكرى ، ولاحظنا ان معلقته الخالدة صدرت عن مشورة طويلـة مخالفين فى ذلك من زعموا أنها مرتجلة ، ونحن لا نرى فيها شاعرنا الحـرث الا من خـلال قبيلته الفخمـة القـوية

ولقـد قدمنا لكم ــ أيهـا السيدات والسادة ــ بطلا آخر هو البطل الفـرد الشريف بحسبه ونسبه ، الواثـق من شجاعته وقوته ، العـازف عن مواقف الضيم والهوان ٠٠ ذلكم هو عمر بن كلثوم سيد تغلب

والابيات التالية من معلقته الفخمة ، تخرجه من نطاق القبيلة الى آفاق بعيدة

يبسط فيها الشاعر سيادته على الارضين والبحار .. فكأنه كان يحلم ــ وهو فى نشوة المجد ــ بمصير هذه البطولة فى المستقبل

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا رضيع ... تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

وللبطل العربى زينتان : مادية وأخرى معنوية ، اما المادية فهى هذا الجسم القوى التام :

بطل كأن ثيابه فى سرحة ... يحذى نعال السبت ليس بتوأم

يحيط به جمال قوى ذو ألوان من الخيل والسلاح ، وهو يعرض فى هذا الجمال الرائع قوة جسمه وحريته ، فاذا امتلأ بسحر ذلك كله وفتنته اتخذ له شارة أو علامة هى اعلان متحمس عن مكانه فى الحرب

أما الخيل العتاق فهى من أسرة هذا البطل ، وهو يحبها أشد الحب ويرعاها ويديم اليها النظر من كل ناحية وحركة ، وهى تقاسمه السلم والحرب ، وهى حصن متحرك للدفاع والهجوم ، وقد تكون وسيلة للنجاة ، أو تكون قيدا للوحش النافر المنطلق ، وهو يسميها كما يسمى أولاده بما يملأ نفسه حبا اذا دعاها

وقد أوردنا ــ أيها السيدات والسادة ــ صورة هذا الحصان الجميل كصاحبه ، ولمثل هذا الفرس الكريم ، الذى لا ينفصل عن حياة فارسه ، ثارت حرب داحس والغبراء

ولقد عرضنا من زينة البطل المادية ألوانا من السلاح الكريم ، فنظرنا فى صور الدروع الفضفاضة ، والسيف العتيق ، والرمح الرشيق ، والقوس المرنة فرأينا هذا البطل يكلف بالجمال والقوة والاغراب فى كل ذلك ، ويأنس اليهما ويملأ بهما حياته الرائعة

واذ قد تناولنا شيئا من زينة البطل المادية فلننظر فى زينته المعنوية فالحماسة والنجدة والحمية التى تحرك جسمه القوى هى أبرز هذه السمات ، وهو صاحب روح رياضى ولا يهون من شأن أعدائه اعظاما لنفسه

فاذا فرغ من الحرب ذهب يتأمل ويشتاق أو يصيد فيعاطى الثور الوحشى عنفا بعنف أو ينصرف على ناقته يجوب الفيافى ويقف على الاطلال

ان أبطال العرب قد خلعوا من بطولتهم على الحيوان بطولة ، كالاسد والثور الوحشى والنعامة والناقة الخالدة ، فتجاوبوا بذلك تجاوبا نشطا مع الطبيعة ، وكنا نود ــ أيها السيدات والسادة ــ أن نقيم فصلا لبطولة الحيوان ولكن الوقت لا يتسع لذلك ، وحسبنا الآن اشارة عابرة الى تلك البطولة

ولقد ذكرنا فى مطلع هذا الحديث تطور معنى البطولة مع تطور المجتمعات واختلاف نظرتها الى السلوك الانسانى ، ومما يسترعى النظر ان نجد معنى

البطولة قد تطور فعلا في الادب الجاهلي .. ولقد كانت من هذا اشارات معجبات الى مستقبل هذه البطولة

ففي ظلال البطولات الحربية لمعت بطولات أخرى لها بريق أروع من بريق السيوف عند النظر ، بطولات تخبرنا ان العرب يتحولون ويتطلعون الى مشارق جديدة ، فهؤلاء مثلا نفر لم يهينوا العقل الانساني بعبادة الاصنام ، وهذه زرقاء اليمامة تقوم تمثالا للكشف وحب الاستطلاع الى غير هؤلاء من الذين أعطوا حياة العرب لونا باهرا من الحيوية والتقدم وأظهروا البشارة بأمر خطير

وننتقي لكم من البطولة العربية المتطورة صورة جديدة في العصر الجاهلي وهي لبطل السلام :

انه شيخ كثير الروية ، وقد نشأ في بيت شاعر ، وكانت بلاده من ديار غطفان ساحة للحرب المستحرة ولكنه ليس كغيره من الشعراء يتحيز لقومه ، وانما كا نصاحب رأى في الحرب تفرد به بين العرب ، تصورها دميمة نامية الشر حتى ينفر منها الناس ، ثم دعا للسلام وحسنه ، وأشاد بالداعين اليه وجعل منه معروفا من القول وهدى

ويظهر انه كان رجلا يتسامى بثقافته على الفهم العام بين القبائل العربية ولعله كان يمثل فئة ضاقت بأسلوب الحياة العربية ، وتاقت الى حياة أفضل

وشاعرنا هذا يؤمن بالقانون الالهي ، ولعله فتح سمعه وقلبه الى هؤلاء المتحنفين كزيد بن عمرو بن نفيل ، أو الى هؤلاء الكهان الذين يطرقون أبواب الغيب ، أو الى هذه الافكار الغريبة التي تطوف بها اليهودية والنصرانية على هياكل الاصنام

وملأه كل ذلك تفكيرا وتسامحا وعد لا يوافق طبعه السمح ، وعلمه ان العمل المشترك نتيجة الاتقان والجودة ، فلا عجب اذن ان يصنع هذا الشيخ الوقور وهو زهير بن أبي سلمى القصيدة المذهبة في شهر ثم ينفق في تهذيبها أو تذهيبها بقية الحول وفي هذا منتهى الامانة

وننصرف عن شاعر السلام الحكيم الى ضوء نار تشير الينا في أعماق الليل ودونها غلام يؤرثها ، وقدور راسيات ، وقد وقف على هذا الغلام المعتمل رجل يحرضه حتى تعلو النار وصاحب هذه النار هو حاتم الطائي بطل الكرم ، وهو رجل رزين حليم ، محب للناس أبعد الحب ، وهو لهم عاذر لضعفهم وحاجتهم اليه

وهذا الرجل الصبور — والصبر سر الكرم فيه — لا يستعبده المال ، فهو ينفقه في فك الاسرى واغاثة الملهوف ، وهو يتأفف من أولئك الذين يجمعون المال ، فلا يجدون معه الحرية في انفاقه وهو لا يجهل قدر المال وقوته ، ولكنه أقوى من المال ، وهو يحمد الله مسرور بنعمة الكرم

وحاتم لا يؤثر الناس بالمال فقط ، بل يؤثرهم بحاجة نفسه تنزيها لهذه النفس الكريمة الأبية من الذم . ولذلك فقد جعل عليها رقيبا من رقة شعوره

ونبله حتى ولو كان وحده وهذا الحساب الغريب من آثار التدين ، ولا نعرف من أين رسخ فى نفس حاتم طى

لقد بنى خوفو هرما ، وجاء اللصوص فسرقوا جثمان فرعون ، ولقد رأينا الهرم أكواما من الحجارة والألم ، ولكننا لا نعرف خوفو كما نعرف حاتم طى

لقد عجنا أيها السيدات والسادة على نسوة فى بحثنا المفصل منهن زبيبة الحبشية أم عنترة ، وعبلة الجميلة ، وليلى الثائرة بنت المهلهل وماوية زوج حاتم

ولقد آن لنا ان نسأل عن دور المرأة وأثرها فى بطولة الادب الجاهلى وهو من غير شك دور خطير ٠٠ فلقد كانت هذه المرأة ذات شأن عظيم ، فهى كأم كانت من غير شك تعلم ولدها ، وتلقنه المأثور من مفاخر القبيلة ، وهو اذا نشأ يحب ان يشعر بعطفها عليه ومكانته لديها ، والرجل العربى كامل بنسائه يذود عنهن ويستبسل فى ذلك ، ونساؤه كن يحرضن على القتال كنساء عمرو بن كلثوم وكانت العرب تشهد نساءها الحروب ليقاتل الرجال ذبا عن الحرم

ولقد كان فيهن بطلات كالشموس التى خرجت على قومها من براثن عمليق الداعر فحرضتهم بكلام يحرك الصخر فثاروا على هذا الملك الفاجر وألقوه طعاما للسيوف الجياع

ان هذه الروح التى تجلت فى قصة الشموس ما فتئت تتردد عبر القرون حتى رأيناها فى فتاة من بادية عربية فى غير جزيرة العرب ، وهى مهيرة بنت عبود من بنى سوار ، التى حرضت قومها على القتال حين وصلت جيوش اسماعيل بن محمد على باشا الى البلاد الشايقة من عرب السودان

ولقد حولنا شعر هذه الفتاة الدارج الى عربية فصيحة كما جاء فى البحث الذى بأيديكم ولكننا نحب ان تسمعوا صوت هذه الفتاة العربية وذلك بانشاد شعرها الدارج الذى قالته حين أصاب قومها الجزع من مدافع الاتراك وليس لديهم الا الرماح والدرق من جلود أفراس النيل ـ ومهيرة فى شعرها هذا تخاطب النساء حتى يكون كلامها أشد اثارة :

الليلة العقيد فى الحله متمسكن ... فى قلب التراب شوفن مجكن
الرأى فاقده لا يشفى لا يمكن ... ما تتعجبن ضيم الرجال يمكن

ثم تلتفت الى هؤلاء الرجال وهى تأمل ان تؤثر فيهم :

أكان فرتويا رفاقتنا ... أدونا الدرق هاكم رحاطتنا

والرحط : ازار من جلد مقدد تلبسه فتيات السودان

ثم وقد أثارت قومها ورأتهم يتحفزون :

غنيت بالعديله لى عيال شايق ... البرشو الضعيف ويلحقوا الضايق

وبعد ـ فمهما يكن حال المرأة العربية فى الجاهلية فقد كانت عنوانا لكتاب البطولة فى الشعر الجاهلى

والشعراء عامة ــ بما فيهم من ذكرنا من الابطال ــ يبدؤون الغناء بذكر المرأة فى حلها وترحالها ، وهى دائما فى قلوبهم وعلى أعينهم حتى فى ميدان الحرب ، وهم يذكرونها اذا رأوا السحاب والبرق ، واذا هب النسيم ، وهم يذكرونها اذا رأوا كثبان الرمل النواعم ، ويذكرونها اذا رأوا عيون الضباء السود ، ويذكرونها وبريق السيوف يخطف الابصار ، ويذكرونها اذا لم يكن الا الفرار من القتال أو الموت ويذكرونها ··· ويذكرونها ···

وقد نسمع صوت هذه المرأة تحرض رجالها فى الحرب أو تلومهم على الرحلة فى طلب المال ، أو تعنفهم على المبالغة فى الكرم ، وهذه المرأة كانت تحب السلامة لقومها على كل حال

ولم يتواتر الغزل فى أول القصيد الجاهلى اعتباطا ، انما هو غاية لا وسيلة ، فهم لا يحنون الى النساء هذا الحنين العام كما يتبادر الى الذهن ، ولكننا نزعم انهم فى الواقع انما حنوا لامهاتهم ، فليس العطف عند الناقة الجاهدة ، فهى تدورها تحن الى أعطافها ، وليس العطف عند الفلوات ولا هو عند الممدوح الموسر ولا عند الاطلال الحالية ، فأين يجد هؤلاء الشعراء الجاهدون هذا العطف ؟ ان الغزل فى حقيقته حنين الى هذه المرأة الام ، اذ لديها وحدها يجدون الحماية والامن والسكينة

ولقد ذكر « GIBB » فى مجلة معهد اللغات الشرقية والافريقية لسنة ٥٠ ان هذا الغزل مرده الى « Nostalgia الصحراء » أى الى الحنين العصبى الذى تثيره وحشة الصحراء وما تخيله ، فهو الذى دفع الشعراء الى هذا الغزل الحنان ، ولكن فات على « GIBB » ان الشعراء مما يصيبهم من الوحشة والعزلة والضياع انما يرتدون الى الطفولة الاولى فيذكرون معالم البيت الاول ويحنون الى الام والعرب يذكرون المرأة فى الغزل فيقولون «أم فلانٌ »

ولقد كانت حياة العرب مجدبة قاسية ، والغارات تأخذ من أطرافهم ، والصحراء تخدع عقولهم والابصار ، وهم دائما يشعرون بالقلق

فليس لهم حب خالص الا عند الام التى كانت واحة فى الصحراء يتطلعون اليها خلف السراب ويتلهفون ويذكرون آثار بيتها الاول حيث درجوا ، ولقد رمزوا لهذه الام ولبيتها الاول بهذا الغزل فى أول القصيد ووجدوا فيه راحة وحماية وعبروا فيه عن حنينهم الى الاستقرار والسلامة

ومن هذا نرى خطر المرأة العربية وأثرها البعيد فى الادب الجاهلى عامة

فاذا خرجنا من القبائل وضربنا فى مجاهل البيداء وجدنا فيها شرذمة عجيبة انهم أفراد يخشاهم الناس ولعلهم كثرت جرائرهم ، وعجزت قبائلهم عن تحملها ، فتبرأت منهم وخلعتهم ، انهم الصعاليك وهم أبطال قد خرجوا عن نطاق التقاليد العامة ، والواحد منهم على خروجه يتخذ لنفسه مظهر القبيلة من أمجاد ومثائر ، ولهم فى خروجهم هذا وجهة نظر لانهم فقراء ، وفى القاموس : صعلكه : أفقره ، والصعلوك : الفقير ، ولكن الفقر لم يقعد بهؤلاء فهم شجعان ،

ولهم أنفة وقوة وفتوة عى أجسامهم وكلامهم ، ولم يجدوا مجالا فى النطاق القبلى ، وأنهم ليحقدون على أهل اليسار فكانت لهم لذة خاصة فى تحدى الاقوياء والعطف على الضعفاء ، ومنهم رياضيون من الطراز الاول ، نذكر بهم أبطال الإغريق ، ولقد امتازوا بشدة العدو وخفة الحركة والخبرة بالمجاهل ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى ، ومنهم تأبط شرا ، والشنفرى ، وسليك بن السلكه

ويظهر ان عروة بن الورد كان زعيما لهؤلاء الصعاليك ، ولكنه صعلوك نبيل شريف لا يفكر فى نفسه وانما هو انسان كلف بأصدقائه وجيرانه ، يحب لهم ما يحب لنفسه ، وهو يؤثر الموت على الفقر ٠٠ لان الفقر ينزع الحب من قلوب الناس ويقتل الحركة ، ولذلك فهو يتصعلك حتى لا تنقطع صلاته بالحياة المليئة بالتعاطف والتكاتف ، وحتى لا يعيش وحده فى رزق ضيق محدود ، وهو لا يلتذ الا بالمشاركة ولا يكتم علينا أن الايثار — على لذته — لا يستطيعه الا مثله

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وهو يعشق السيادة ويرى لها معنى غاية فى النبل ، فهى ليست فى جمع المال وتسخير الناس بهذا المال ، ولكن السيادة الحقة هى ان يبذل المال فى اعانة من يحتاجون اليه وهو بعد لا يمد يده الى ما فى أيدى الناس ، وهذه غاية الغايات فى الشجاعة والكرم وعزة النفس

فالصعلكة ، كما يراها عروة ، شجاعة فى القلب وسماحة فى النفس ، ولئن تكون اطلاقا صفة لمن طحنه الفقر وعبده ، وانما هى فى عدالة لا تتصل بالنظام العام ، عدالة يقبلها عروة ويتخذها له منهاجا ، وليس فيها جناية او ظلم اطلاقا ما دامت تثور على الظلم وتعطف على المظلومين

وعروة بن الورد رجل اشتراكى النزعة ، لا يقتنى المال ، فهو كما نرى فى شعره ، وسيلة للمعانى الانسانية النبيلة ، وهو يشبه من كل وجه شخصية « روبن هود » فى تاريخ الشعب الانقليزى ، وان كان الاخير يتخذ من غابة « شيروود » مقرا ومختبأ له ولاتباعه من الخوارج ٠ فقد كان عروة يمتنع بالفلوات والاودية ، من غير من على خصمه ، ولئن كان « روبن هود » بطلا فى الرماية ، فلقد كان عروة أحد حذاق البشر فى استعمال السيف ورياضة الخيل ، ولقد كانت ثورة « روبن هود » خروجا على السلطان الجائر ، كما كانت ثورة عروة وجماعته احتجاجا ملحا على التقاليد الجائرة ، والرذائل الانسانية كالجبن والبخل والذل ٠ ونحن لا نسمع صوتا لبطولة « روبن هود » ، أما بطولة عروة فهى صورة متحركة ناطقة نراها ونسمعها فى شعره ٠ ولعل عروة فى ايمانه بالصعلكة كان يحلم بنظام يتساوى فيه الناس وان لم يعرف كيف يدعو اليه بغير هذا الاسلوب المتفرد

وعلى ذكر الصعاليك ففى بادية السودان نهاضون شعراءهم نفحات باقيات

هناك من مثائر الجاهلية ، والنهض بلغة السودان الدارجة هو الشجاع الذى ينهض للغارة ، فلنستمع الى هذا النهاض السودانى يقول :

الولد البدور يشكر   يبعد رده فى بلد العدو يتوكر

اما جاب رضا البهم اللهيجو مسكر   واما أب صلعه فوق ضلاعه تيتل وسكل

وهذا معناه : ان على الولد — أى الفتى الشجاع — الذى يحرص على بعد الذكر وحسن الاحدوثة ان يتوغل فى بلد العدو فاما ان يرضى بذلك البهم اللهيجو مسكر أى النساء حلوات الثغور واللهجات كالسكر بالمال والرغاب ، واما ان يقتل فهو ملقى بالعراء يختال الصقر الاصلع فوق أضلاعه ويصرخ

أليس يشبه هذا الكلام شعر عروة :

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى   أفيد غنى فيه لذى الحق محمل

وكلام آخر :

هى قلوصك وارم الليل عن عرض   بذى سبيب يقاسى ليله خببا

حتى تصادف مالا أو يقال فتى   لاقى التى تشعب الفتيان فانشعبا

وبعد ، لقد اشتعلت حرب طرواده من أجل امرأة جميلة واشترك فيها الآلهة ، وفحوى القول هو ان هؤلاء اليونانيين قد ارتفعوا بالبشر الى مستوى الآلهة وقد ينزلون بهؤلاء الآلهة الى منزلة البشر ، ولذلك فقد لعبت الاهواء بهؤلاء الارباب ، وكان نصيبهم فى الملاحم أكبر من نصيب البشر

وشبت حرب البسوس من أجل امرأة ، والبسوس صاحبة الناقة او صاحبة هذه الحرب ليست جميلة كهيلين طرواده ، ولكنها عربية أبية وناقتها فى القدر مثل كليب وائل ، وليس يعنيها ما دام أنفها العربى مصونا ان يهلك الرجال

ثم اشتعلت حرب داحس والغبراء من أجل رهان ذهب بته الخديعة وعجزت عن رده السيوف

والسبب فى حرب الناقة والفرسين مرده الى الكرامة الشخصية ولكن الابطال فى هذه الملاحم العربية الشاعرة لم يستعينوا كما استعان أبطال اليونان بالهة وانما استعانوا بسيوفهم والمثائر

وبطولة العرب اذا قابلناها بالبطولة اليونانية ، رأيناها واقعية تمثل طبيعة العرب أحسن تمثيل وأروعه

والبطولة العربية أرجح ميزانا ، فلقد وقفت هذه البطولة بكل أمجادها على سفح جبل فى مكة تنظر الى غار فى هذا الجبل ، فلما سمعت صوت السماء من ذلك الغار المنتظر خرجت من الجزيرة العربية واتصلت بمصير العالم ، وما زالت تعمل عملها الى اليوم ٠

تحية تونس

بقلم محمد الشعبوني

حى أهـل الضـاد يا شعر ونـاد   بانتصار الفكـر فى كـل بـلاد
وانطلق فى مجمع الاحرار واذكـر   همما تـدعـو الى خير المبادى
وتـرنـم بـأغـانيـك ، وردد   من ربى الخضراء شوقا فى ازديـاد
ان فى الخضـراء لـلاخـوة ، حبـا   دائمـا لـم يثنـه طـول البعـاد
محضتـه لـغـة جلت ، وأذكت   شعـلة الحب ، تبـاريح الجهـاد
هـذه تـونـس لـلاخـوة مـدت   قلبهـا والصـدر منهـا والايـادى
فاسمعـوا أصـواتهـا بالحب دوت   بلسـان عربـى ، متهـادى
وحكـى قصتهـا الكبـرى أبـاة   وسقت ثـورتهـا روح الجـلاد
وعلت رايتهـا الحمـرا تحيـى   خافق الرايات فى أعلى النـوادى
هـذه تـونـس شقتهـا طـريقـا   بعـد آلام جسـام ، واضطهـاد
وهى تبنى اليوم صرحا مشمخـرا   من دم الابطـال من روح التفـادى
وهى ترجـو لفلسطين خـلاصـا   والى الاخت انتصـارا فى الـذيـاد
عـن قـريب يجمـع الله شتـاتـا   ويسيـر الركب فى أقـوى اتحـاد

❀ ❀ ❀

يا حماة الشعر ، فى صدرى حنين   ذاب فى تصـويـر أمجـاد تـلاد
وسما بى نـازع الشـوق اليكـم   فتغنيـت بـألحـان الـوداد
كيف لا والتـونـسى اليـوم واع   يبتنـى صرح المعالى ، ويفـادى
عـربـى دمـه ، يجـرى دفـوقـا   من قلـوب أشـربت حب الجهـاد
كتبت تـونس فى الدستور عهـدا   أنهـا للعـرب جـزء فى امتـداد
واذا مـا كـان وضـع الجـزء يقضى   أن يـرى الجـزء قـوى الاعتمـاد
فـاكتمـال الجـزء تركيـز لكـل   لا يسمـى عنـد حـر بـارتـداد

فهي منكم وان اختصت بسير نلتقي فيه على خير المبادى
وهي منكم قوة تعتز رأيا ولها رمز عظيم ، متفادى
قد أتت تنهي بيوم عربي شوقها ، والشاعر المفتون شاد

❀ ❀ ❀

يا بني الفصحى لكم في الدهر سفر حرر العقل ، وألقى بالصفاد
ولكم من قصص الابطال رجع رددته الروح في كل احتشاد
ولكم من راية الاحرار نسج لن ينال الظلم منه ، والعوادى
قد نسجناه بدمع ، ودماء ورفعناه بأيدينا الشداد
وسرى تياره في كل قلب واستفاق الحر ، من طول الرقاد
فتح الآذان عن صرخة أم دمدمت في الكون توصي باشتداد :
ان تكونوا أمس قد حرتم جوابا لنداء الام ، والطغيان باد
فانشروني اليوم ، في كل مكان انه بالضاد لن يظمأ صادى

❀ ❀ ❀

يا وجوه الادب الحي وأنتم خير من يدعو الى نهج الرشاد
هذه الفصحى تنادي : أين أنتم ؟ خلصوني ، حرروني ، من قياد
انني أملك في الدنيا رصيدا غاليا يربو على أقوى عتاد
يستمد الشعر منه خير وحي ويغني بهواه ، كل حاد
ويصوغ الادب الجبار منه قصة تبقى بأعماق الفؤاد
فامض يا مؤتمر الكتاب وانشر آية الفصحى وجل في كل ناد
وتخير صورا عن كل فرد بذل الروح لاسعاد البلاد
واشترى الجنة بالروح وأنهى حكم من جاروا ولجوا في العناد

❀ ❀ ❀

أيها الاخوة ، ذى تونس حيت يومكم هذا ، وبالشعر تنادى
عاشت الآداب في العالم فيضا طاهر النبع ، حريا بارتياد
عاشت الفصحى لسانا لايضاهى دائم الارسال ، حي الامتداد
ورعى الله جهودا خالدات نصرت بالرأى آمال العباد

البطولة في الأدب العربي
بعد ظهور الاسلام

بقلم صلاح خالص
- العراق -

أود ان أقول أولا : ان موضوع (البطولة فى الادب العربى منذ صدر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية) لا يمكن ان يستوفى فى محاضرة كهذه ، بل ولا فى محاضرات قليلة ، فالفترة التى يشملها البحث تنيف على ستة قرون ، حافلة بالنشاط الفكرى ، فياضة بالنشاط الادبى الذى صور وجوها مختلفة من الحياة ، وعرض جوانب متباينة من فعاليات الفكر والمجتمع ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه الفترة الطويلة من تاريخ المجتمع العربى ، او الاسلامى عموما ، هى أعقد فترات حياته وأكثرها اضطرابا • وهذا التعقيد يتمثل واضحا فى العلاقات الاجتماعية القائمة بين أفراده وفى تكوينه الطبقى كما يتمثل فى طبيعة الكتل الاجتماعية فيه • وكان لكل من هذه الكتل آمالها وأمانيها وأهدافها فى الحياة • وبما ان فكرة البطولة نفسها مرتبطة أوثق ارتباط بالتركيب الاجتماعى ، فان بحثها فى مجتمع متطور مثل هذا المجتمع يتطلب مزيدا من الجهد والتدقيق ، ومزيدا من البحث والتتبع لا أعتقد ان المجال يتسع لها الآن • واذا أضفنا الى ذلك ان ظروفنا الخاصة فى العراق لم تسمح لنا بالتهيؤ الكافى للمؤتمر والتفرغ التام للبحث • فقد ابتلعت وقتنا المشاغل واستأثرت باهتمامنا الواجبات ، أقول : اذا أضفنا الى طبيعة الموضوع هذه الظروف الخاصة جاز لنا ان نطلب المعذرة لعدم ايفائنا البحث حقه واعطائنا الموضوع ما يستأهل من سعة وعمق ، واقتصارنا على وضع الخطوط العامة لفكرة البطولة وتطبيقها على وضع المجتمع الاسلامى فى صدر الاسلام • أقول لما مر من الاسباب سنقصر بحثنا على تحديد الخطوط العامة للبحث وتوضيح الاساس العلمى الذى يجب ان ترتكز عليه مثل هذه الدراسة • وسنجد أننا ، لكى نرى البطولة تنعكس فى أدب عصر من العصور ، لا بد لنا من الغوص فى أعماق المجتمع ودراسة تركيبه وتتبع تياراته

ان فكرة البطولة ، أيها السادة ، كأية فكرة أخرى ، كالخير والشر ، كالصلاح والفساد ، كالاخلاص والخيانة ، تنبثق من الواقع الاجتماعى والاقتصادى وتنشأ عنه ، ثم تؤثر فيه بعد ان تصبح حقيقة مادية (بالمعنى الفلسفى للكلمة) بعد ان تصبح حقيقة مادية لها وجود محسوس وواقع ملموس • وما البطل الا ذلك الفرد الذى يدرك باحساسه المرهف وذكائه الوقاد وعبقريته النادرة مطامح مجتمعه وأمانيه ، فاذا به فى طليعة من يسعى لهذه المطامح ويكافح لتحقيق هذه الامانى ، ما البطل الا ذلك الفرد الذى يرى فيه الآخرون ما كانوا يبحثون عنه وما يتوقون للحصول عليه

ان البُطل هو ممثل أمانى المجموع وطليعتهم فى كفاحهم من أجل مثلهم العليا وأهدافهم السامية ، ومن الطبيعى ان ينبثق البطل من أعماق المجموع بعد ان يتمثل باحساسه المرهف وادراكه العميق كل أحاسيس المجتمع الذى هو فيه ، ويستوعب أفكاره وحاجاته وآماله ٠٠ فالشعوب تخـلق أبطالها والمجتمعات تلـد قادتهـا وزعمـاءها

صحيح ان هناك أبطالا لا يحتلون منزلتهم فى نفوس مواطنيهم الا بعد زمن قد يطول او يقصر ، لانهم قد تقدموا الآخرين فى ادراكهم ، فلا يلحق بهـم ولا يفهمون الا بعد ان تكون حياتهم قد انتهت وأجلهم قد فات ، ولكن ذلـك لن يغـير شيئا فى طبيعة البطولة وعلاقتها بالمجتمع ٠ ان المجتمع يخلق أبطـاله ولن ننسى هنا أبدا دور العبقرية الفردية والابداع الذاتى للافراد أنفسهم الذين تسنوا عروش البطولة ولبسوا تيجانهـا

ولا شـك فى أننا قد لا نتفق على معنى البطل ، وعلى ما ندركـه من كلمـة بطولة ، فهناك من يفهمها على انها الجرأة ، او ان شئتم فلنسمها الشجاعة والقيام بالاعمال الخارقة واجتياز العقبات ٠ واذا قبلنا بهذا المفهوم للبطل ، فيترتب على ذلك ان نجرد معنى البطولة من المضمون الفكرى ، وان نجعلها مجرد شكل من أشكال السلوك الفردى ، ويترتب على ذلك أيضا ان تقديرنا للبطولة سيكون تقديرا فرديا صرفا ، تقديرا لهذا الشخص او ذاك سواء أكان مصيبا او مخطئا ، سواء أكان يسعى للشر ام للخير ، سواء أكان عاقلا ام مجنونا ٠ ونظرة مثل هذه للبطولة لا يمكن قبولها مطلقا فى رأيـى ، اذ يتساوى فيها المجرم والشريف ، يتساوى فيها المفسد والمصلح ، يتساوى فيها دعاة الرجعية ودعاة التقدم

ان البطولة أيها السادة ، ليست نوعا من السلوك فحسب ، انها ليست صفة لاعمال جرئية يقوم بها هذا او ذاك من الناس ٠ انها أعمق من ذلك بكثير ، فهى فكرة وعمل ، بل انها أكثر من ذلك : فكرة نبيلة وعمل جبار ٠ البطولة ضـد الشر ، ضد الفساد ، ضد الرذيلة وضد الرجعية على وجـه الخصوص ، لانهـا بطبيعتها تقدمية ٠ واذا كان لا بد ان أوضح معنى « الرجعية » فأقول : ان ركنها الرئيسى هو عدم الايمان بالتطور ، والتشبث بأن (ليس فى الامكان أحسن مما كان) ، كل ذلك حفظا للمصالح القائمة والتشبث بالاوضاع الفاسدة التى تخدم الاقلية دون الاكثرية ، وتقف فى سبل تمتع أبناء المجتمع بامكانيات الحيـاة ، ولذلك فان أول ركن من أركان البطولة هو الايمان بالتطور ، الايمان بضرورة تحقيق شىء جديد فيه الخير للمجتمع ، او الايمان بمثل أعـلى يفيد الآخرين ٠ والركن الثانى لها هو العمل الدائب الجرىء الحكيم لتحقيق هذا الخير او هذا المثل الاعلى ، والاستعداد للتضحية فى سبيل ذلك ، وليست التضحية هنا ان يستعد الانسان للانتحـار ، وانما ان يضحى بمصلحته الخاصة فى سبيـل مصلحـة المجموع وان يقدم نفسه ذاتها ان كان ذلك يعود بالخير على الآخرين ٠ وهكـذا

فالبطولة كما قلت فكرة وعمل ، وسنرى أمثلة واضحة على البطولة فى تاريخ المجتمع العربى

لقد دفعت الصحراء الشحيحة سكانها الى حياة البداوة وحياة الرعى ، حياة التنقل والارتحال والبحث وراء العشب والمرعى ٠ ومن الطبيعى جدا ان يكون مرعى القبيلة او حماها ملك القبيلة كلها فتدافع عنه باستماتة واستبسال ، اذ لن يتيسر لها العيش او تستطيع الحياة دون ذلك ٠ ولذلك كان لا بد لافراد القبيلة ، هذا المجتمع البدوى الصغير ، ان يتكاتفوا ويتساندوا ويتعاونوا على السراء والضراء ، ففى هذا التكاتف والتساند والتعاون حياة القبيلة ، او ان شئت فقل حياة كل فرد فيها ٠ فعز القبيلة عز أفرادها ، وذل القبيلة ذل أعضائها ، ورفاه القبيلة رفاه أبنائها ، وعسرها عسر لكل واحد فيها ٠ وهكذا ارتبط الفرد بالقبيلة واحتضنت القبيلة الفرد ، وأصبحت مصلحة القبيلة وخيرها هى مصلحة كل فرد من أبنائها ، فهى التى توفر له سبل العيش بدفاعها عن حماه ، وهى التى تحفظ حياته باصرارها على الثأر ممن يعتدى عليه ، وهى التى تؤويه ان ضاقت به السبل ، ومن هنا نشأت **العصبية القبلية** ، ومن هنا أصبحت القبيلة سيدة المجتمع البدوى

فمن هو البطل فى نظر القبيلة ؟ ٠٠ انه ذلك الذى يذود عن حماها ، ويحمى ذمارها ويرفع شأنها ويبنى مجدها ويكافح لاجل بقائها ، انه المغوار الذى لا يكل عن القتال ولا يرتد عند ما تدلهم الخطوب ، انه كما يصفه تأبط شرا فى وصفه لنفسه عند ما يقول :

ولا أقول اذا ما خلة صرمت ... يا ويح نفسى من شوق واشفاق
لكنما عولى ان كنت ذا عول ... على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد فى عشيرته ... مرجع الصوت هدا بين أرفاق
حمال ألوية ، شهاد أندية ... قوال محكمة جواب آفاق
فذاك همى وغزوى استغيث به ... اذا استغثت بضافى الرأس نغاق

او كما يقول الفارس البدوى عامر بن الطفيل :

لقد علمت عليا هوازن أننى ... أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق أنى أكره ... على جمعهم كر المنيح المشهر
اذا أزور من وقع الرماح زجرته ... وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر
وأنبأته ان الفرار خزاية ... على المرء ما لم يبل جهدا ويعذر

ولكن المجتمع البدوى كله كان يعانى من نظامه ما يعانى من عنت وبؤس ، كان يقاسى الامرين من هذا التطاحن بين القبائل ، والتناحر بين هذه المجموعات البشرية التى تربطها كثير من الصلات ٠٠ لقد كانت هذه العصبية القبلية التى

حفظت لكل فرد وجوده ، ووبالا على المجتمع كله وشرا حتمته ظروف الحياة وفرضته أساليب العيش فى تلك الصحراء القاحلة

لذا ، فان كان بطل القبيلة هو الذى يدافع عن كيانها ويحمى ذمارها ويحفظ لها وجودها ويرفع شأنها وينكل بأعدائها ، فان **البطل الحقيقى** للمجتمع الجاهلى لم يكن بهذه الصفات ٠٠ ان البطل الحقيقى الذى كان ينتظره المجتمع العربى قبل الاسلام ،سواء شعر بذلك أفراده أم لم يشعروا ، كان يختلف تماما عن بطل القبيلة هذا ، بل انه كان بعيدا جدا فى صفاته عنه ٠٠ انه لم يكن ذلك الذى يحفظ للقبيلة كيانها وينكل بأعدائها ويرفع من شأنها ويشيد بمثائرها ، بل كان ذلك الذى يزيل كيان القبيلة ويمحو العصبية القبلية ، ويخلق من هذه الكتل المتناحرة والقبائل المتنازعة وحدة متماسكة تربطها مثل عليا مشتركة وأهداف مشتركة ، ثم يرسم لها طريق التقدم والرقى ، ويهىء لها امكانية النهوض من هذه الحياة العسيرة المضنية الى حياة أخرى كلها أمل وثقة بالمستقبل ٠ هذا هو البطل الحقيقى للمجتمع البدوى قبل الاسلام ٠٠ البطل الذى يستجيب لحاجات هذا المجتمع ويطمئن رغباته ويحقق آماله ويوجهه الى الطريق الوحيد الذى يؤدى الى المجد الحقيقى والرقى الصحيح ٠٠

وظهر هذا البطل ، ودوت صرخته فى وهاد الجزيرة العربية وبطاحها ، فاذا بهذه الكتل البشرية الجبارة تستيقظ وتشعر بصدى هذه الصرخة تتردد فى أعماق نفوسها ، واذا بها تستجيب لها رغم ارادتها ، وتلتف حول بطلها كتلة متراصة متينة البنيان ، ثم تتجه نحو العالم لتقوم بدورها فى بناء الحضارة الانسانية

ان من الخطا ان نقول ان محمدا (صلعم) فرض نفسه على العرب ، وانه أخضع الجزيرة بالسيف ، كما يحاول ان يقول بعض المغرضين ٠٠ انه كان روح العرب انه كان آمال العرب ٠٠ انه أمانينا ٠٠ انه ما كانت تبحث عنه وتتوق للحصول عليه ، دون ان تدرك ذلك تماما ٠٠ لقد جاء ليصلح وضعا لا بد ان ينصلح ، وليزيل مساوىء لا بد ان تزول ، ويقيم كيانا يجب ان يقام ، فاستطاع بعبقريته ان يفعل كل ذلك ، استطاع بعبقريته ان يشخص الداء ويعرف الدواء ٠٠ استطاع بعبقريته ان يدرك مواطن الضعف ومواطن القوة فى المجتمع فيقضى على الاولى ويطور الثانية ٠٠ استطاع ان يرشد المجتمع العربى الى الطريق الذى كان بطبيعة وضعه يبحث عنه ٠٠ ولم يدرك ذلك من أبنائه سوى طليعته الواعية التى نبع فيها البطل الذى قاد المجتمع العربى كله من الظلمات الى النور ٠٠

وجاء القرآن الكريم ليرسم صورة جديدة للابطال ، لبناة العالم الجديد الذى حملوا على عاتقهم الرسالة الجديدة وساروا يجوبون الآفاق ليخطوا بالمجتمع ، بل بالانسانية كلها الى الامام ٠ انها صورة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى كان يصورها الادب الجاهلى لمن يسميهم أبطاله ، أى أولئك المحاربين الاشداء حماة النظام القبلى والمدافعين عنه ٠ ان هؤلاء الابطال الجدد يختلفون عن ذلك تماما ، انهم لا يدافعون عن النظام القبلى بل يحاولون تبديله ٠٠ ان أنظارهم تتجه الى ذلك العالم السعيد الذى يعيش فيه البشر جميعا اخوانا ، يسعى كل منهم لخير الآخرين « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

ان أبطال القرآن الكريم كلهم أبطال ثائرون ، انبثقوا من المجتمع لا ليسندوا النظام القائم ، او يدافعوا عن المصالح القائمة ، وانما جاءوا ثائرين ، يريدون محو ما هو موجود من ضلال وفساد وخلق شيء جديد ٠ يريدون ان ينفذوا الى العقول والقلوب فيغيروا ما بداخلها ويخلقوا نفوسا جديدة فى مجتمع جديد ، ولنضرب أمثلة من هؤلاء الابطال :

فهذا نوح ما كاد يدعو الناس الى طريق الهداية حتى التف حوله ضحايا المجتمع ، وحاربه زعماؤه وسادته « قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادىء الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »

وهكذا الابطال فى كل زمان ومكان ، يقاومهم سادة المجتمع الذين يدعون لانفسهم الفضل وتستجيب لهم الجماهير البائسة التى أضناها الفقر وأنهكها الاستغلال ، فلا تكاد ترى ذلك الذى يصرخ بصوتها حتى تستجيب له وتسعى نحوه ، وكم هو رائع قول نوح وهو يجيب على هذا النقد الذى ظل السادة يوجهونه حتى الوقت الحاضر الى أبطال الشعب حين قال : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين قالوا يا نوح ، قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين »

وهذا بطل آخر من أبطال القرآن الكريم ، هو هود الذى جاء قومه عادا ، الذين وصفهم الله تعالى فى القرآن الكريم بقوله : « وتلك عاد جحدوا بايات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد » جاءهم ليخلق منهم مجتمعا جديدا كله خير وصلاح ، فقاومه السادة ، ورفضوا دعوته « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون »

وهذا شعيب ، بطل آخر يرسم صورته لنا القرآن هاديا مصلحا وداعية للخير ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم : « والى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قومى اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره ، ولا ينقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ٠ ويا قومى أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين » ٠ ولكن الغـرور يركب سادة قومه ، فيقفون فى وجهه ويعرضون عن أقواله : « قالوا يا شعيب ، ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ٠٠ » ولكنه يصمد ويكافح رغم كل ما يلقاه من معارضة ومقاومة شـأن الابطال الآخرين

ومثل نوح وهود وشعيب من أبطال القرآن ، صالح وموسى وابراهيم ويوسف وأيوب وغيرهم ممن تحملوا أصناف الهوان والعذاب والشقاء فى سبيل رسالتهم الانسانية ، فلم تنحن رؤوسهم أمام الباطل ، ولم ترتعد فرائصهم أمام الظلم ، بل وقفوا صامدين ، مرفوعى الرأس ، يدعون الى الحـق ، يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ٠٠ كانوا أبطالا ثائرين يريدون اقامة صرح جديد للانسانية ، ورسم طريق مستقبـل مشرق للبشرية

ولعل من أروع الصور التى رسمها القرآن الكريم لهؤلاء الابطـال ، صورة ابراهيم ، ذلك الثائر الذى وقف شامخ الرأس ، متحديا الظلم والطغيان بعناد واصرار ، غير مبال بما صب عليه الحاكمون الطغاة من اضطهاد وتنكيل وبغى ، حتى لقد ألقوه بـ : ألسنة اللهيب ، ولكن النار عجزت عن القضاء على الايمان ، على الحق ، على الصلاح ، عجزت عن القضاء على تمرد الفضيلة ضد الرذيلة وثورة الخـير ضد الشر ، ان كل ما عمله الجبار العاتى المتغطرس كان عبثا أمـام ارادة البطل الثائر المتمرد على الظلم الداعى لمجتمع جديد ، يختفى منه الجور وتسود فيـه المحبـة والعـدالة

هؤلاء هم صور البطولة فى القرآن الكريم ٠ انه لم يرسم صور أبطال يجيدون الطعن بالرماح والضرب بالسيوف وقتل الناس وتخريب المدن ٠ انه رسم أبطالا يدافعون عن الحياة ، عن سعادة البشر وعن مستقبلهم ٠ وكان محمد «صلعم» النمـوذج الاعـلى لهـؤلاء الابطـال

ولا أظننا بحـاجة الى الاشارة الى الادب الذى نشـأ مع نشـوء الرسالـة المحمدية ، ولا سيما شعر عبد الله بن رواح الذى كان يشيد بالقيم الجديـدة ، ويتهم أعـداء النظام الجديد بما كانوا يفتخرون به ، ولـم يدركوا قيمة هـذه

الاتهامات الا بعد ايمانهم بهذا النظام ، فقد كان شعر حسان كما هو معلوم أشد وقعا على قريش من شعر عبد الله لانه كان يهجوهم وفق بعض القيم القبلية التى كانت سائدة قبل الاســـــلام

وشهـد المجتمع العربى كثيرا من الابطال الذين نذروا أنفسهم لرسالتهـم السامية ، وساروا الى الامـام بعزم لبناء العالم الجديد ، عالـم المساواة والخـير والعدالة ، مضحين بكل شيء ، ومؤثرين مصلحة أمتهم ، بـل مصلحة البشرية جمعاء على مصالحهم الخاصة · او ان شئت فقـل ان مصلحتهم الخاصة أصبحت جزء لا يتجزأ من مصلحة المجموع ، فهى لا تتحقق الا بتحققه · فهذا عـلى وهذا أبو بكـر وهذا عمـر وهؤلاء آل عمـار وصحابة الرسـول وأبطال الاسلام فى القادسية واليرموك وفى كل أرجاء الارض ، يمثل كل منهم صورة رائعة من صور البطولة الحقة التى سبق ايضاحها فى مقدمة هذا الحديث

وانتقل العرب الى السهول ، وسكنوا المدن ، واتسعت مصادر العيش ، فبعد ان كانت مقتصرة على الرعى قبـل كل شيء ، أصبحت الزراعة والتجـارة هما الاساس الذى يعتمد عليه المجتمع فى حيـاته ، واختلط العـرب بغـيرهم من العناصر ، وقد أدت هذه التبدلات الى تغيـير شامل فى تركيب المجتمع العـربى وفى علاقات أفراده ببعضهم ببعض ، فنشأت طبقة غنية مترفة تملك الاقطاعات الواسعة ، ونمت الى جانبها طبقة تجارية يختلف ثراء أفرادها قلة وكثرة تبعا لسعة أعمالهم ، والى جانب هؤلاء وأولئك وجدت العـامة التى تشمل جمهـور الحرفيين والعمال والعاطلين وغيرهم ممن يستخدمون قوتهم على العمـل لكسب العيش ويكونون الاكثرية الساحقة من سكان المدن ، هذا الى جانب القبائل التى لا تزال قريبة عهد بالبداوة والفلاحين البعيدين عن مراكز الحياة السياسية

ومن الطبيعى ان يكون لكـل من هـذه الطبقات مطامحها الخاصة وحاجاتها المعينة التى تختلف وتتباين ، بل وتتناقض فى كثير من الاحيان · فكانت مطامح طبقة المالكين الغنية تتـركز فى توسيع ثرائها وتدعيم مركـزها الاقتصـادى والاجتماعى عن طريق استئثارها بالنفوذ السياسى ، او بتعبير آخر ، باستيلائها على زمام الحكم · وقد بدأت بوادر هذه المحاولات بعد وفاة محمد (صلعم) بزمن قصير ، حتى اذا جاء الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، وجد ان من العسير عليه ان يفرض تعاليم الاسلام ومثله العليا نقية خالصة كما كان ينفذها الرسول ، اذ انتفضت فى وجهه هذه الطبقة الغنية الناشئة التى استطاعت تثبيت أقدامها فى أجزاء مختلفة من العالم الاسلامى · وما كاد الاجل يوافيه حتى تبدلت طبيعة الحكم فى بلاد المسلمين ، وابتـدأ حكم الاسر ذات النفوذ ، وكانت فى مقدمتها

أسرة بنى أمية · ومن الطبيعى ان ينشأ بين الاسر الارستقراطية نفسها وفى داخلها نزاع مرير حول السلطة ، وان تستغل كل منها ما لديها من امكانيات لغرض نفوذها فى هذا المجال · والى جانب هذه الطبقة الغنية ، كانت الطبقة الوسطى التجارية تطمح كما هو حالها فى كل زمان ومكان تقريبا الى ثلاثة أمور : الامن والعدالة والسلم ، لتضمن تجارتها وتحافظ على أموالها وتحصل على حقوقها ويتيسر لها الاتصال بالعالم دون خطر يتهددها او حرب تعوق تبادلها البضائع مع غيرها · وكانت كل أهدافها تتحقق بوجود دولة قوية متينة وحكومة حازمة تأخذ بيدها مقاليد الامور وتفرض على الناس احترام القانون

أما العامة فكان مطمحها الاساسى الحصول على القوت وتيسير وسائل العيش · فاذا سدت أمامها الطرق وضاقت بها السبل ، فانها تظل تبحث عن ذلك البطل الذى ينتشلها من البؤس المحدق بها وينقذها من الشقاء القابض على خناقها ، لذا فانها مستعدة لان تكون نارا لكل ثورة وحطبا لكل حركة تمرد

ولا أريد ان أدخل فى تفصيلات تحليل المجتمع الاسلامى ، فان عملاً مثل هذا يتطلب كثيرا من الجهد والوقت لا يتيسران الآن · الا ان ما يجب ان أقوله وما يتصل بموضوعنا الآن هو ان كلا من هذه الطبقات كانت ترسم لابطالها صورا تختلف تماما عن الصور التى ترسمها الطبقة الاخرى · فكان أبطال الطبقة الحاكمة هم أولئك الذين يقبضون على السلطة بيد من حديد ويحافظون على الوضع القائم ويدافعون عنه بعناد ، وكانت الطبقة الوسطى تحرص على تشبث أبطالها فضلا عن ذلك بالعدل والكرم واحترام الشرائع · وهكذا كانت صور البطولة التى يرسمها شعراء الطبقة الحاكمة للملوك والحكام · فهذا الاخطل وهذا جرير ومن لف لفهما من الشعراء يرسمون لنا فى قصائدهم التى قالوها فى المديح صورا للحاكمين كما يجب ان يكونوا ، محاولين ان يخلقوا منهم أبطالا لو تتبعنا صفاتهم لرأيناها انعكاسا لقيم الحاكمين أنفسهم ولآرائهم فى السياسة والادارة ، ولآراء الطبقة الوسطى وتفكيرها أيضا · فقد كانت الطبقة الوسطى مستعدة للالتفاف حول كل من يحقق لها أهدافها التى سبقت الاشارة اليها فى العدل والامن والسلام

ولكن أعقد الابطال هم أبطال العامة ، لان العامة كثيرا ما كانت لا تدرك ما تريد ، ولكن استياءها وعدم رضاها ينعكس بصورة تلقائية فى سلوكها ولا سيما فى أثناء الاضطرابات ، فتخلق لنفسها أبطالا ، كثيرا ما كانت تتلاشى بطولتهم عند انتصارهم لانهم لا يكادون ينتصرون حتى يستأثروا بالحكم ، فتتبدد الآمال التى عقدت عليهم ، وعندئذ تعود العامة لتبحث عن بطل جديد · واذا

كان التاريخ قد شهد فى القرن الاول الهجرى صورا لم تكتمل لابطال عقدت عليهم آمال العامة ، فان الاحداث التاريخية نفسها تثبت بشكل لا يقبل الشك بأن الزمن والظروف لم تكن كما يبدو مهيأة لهم لكى يقوموا بدور البطولة بالمفهوم الذى تحدثنا عنه قبل قليل ، تلك البطولة التى تدرك حاجات الاكثرية الساحقة من أبناء المجتمع ، فتتمثلها وتستوعبها ثم تمثلها وتسير من مقدمة المجتمع الى حياة جديدة ونظام جديد

لقد حاول العلويون ذلك وحاول الخوارج وسجل هؤلاء وأولئك صفحات مجيدة من البطولة محاولين تهيئة حياة جديدة يسودها العدل والرخاء ، ولكن الظروف لم تكن مهيأة لنجاحهم ، ففشلوا فى تحقيق أهدافهم ، وخابت آمال العامة ، فظلوا يبحثون حولهم عن البطل المنقذ ، فلم يجدوه بين البشر المحيطين بهم ، فتعلقوا بأبطال خياليين وانتظروا ذلك الذى سيخرج لهم من أعماق الغيب فيقضى على عناصر الفساد ويحقق العدل ويزيل الظلم ، وينقل المجتمع من حياة التعاسة والشقاء الى السعادة والرفاه ٠ وهكذا ظهرت فكرة المنقذ المجهول او المهدى المنتظر الذى سيستطيع بقوة خارقة ان يحقق الامانى والآمال ، وينشر الامن والسلام ، ولكنهم ظلوا ينتظرون كثيرا ، ظلوا ينتظرون قرونا طويلة دون ان يظهر ذلك البطل

على ان تاريخ الاسلام لم يخل من أبطال حملوا لواء الاصلاح الاجتماعى وكافحوا بعناد واصرار ضد الظلم والفساد ٠ ولكن أصواتهم بحت وذهبت جهودهم سدى ، لان ظروف المجتمع الاسلامى لم تكن مهيأة لمثل هذا الانقلاب ، فان وسائل العيش وتوزيعها كانت دائما تضع الطبقة المالكة الغنية القابضة على ناصية الحكم فى وضع قوى سواء فى الميدان الاقتصادى ام فى الميدان السياسى ، يسمح لها بأن تضرب بعنف كل الحركات التقدمية التى تهدف الى قلب العلاقات الاجتماعية وتهديد مركز الحاكمين الاقتصادى والسياسى ٠ وأروع هذه الحركات وأكثرها تنظيما هى حركة القرامطة التى قامت فى جنوب العراق وشملت مناطق واسعة وكان لها فى هذه المنطقة نفسها التى نحن فيها الآن أى منطقة البحرين وما جاورها دولة من نوع جديد لم يكن فى مقدورها ان تقف صامدة أمام أعدائها الكثيرين الاقوياء مدة طويلة من الزمن

وجاء العصر الحديث ، ونمت الطبقة الوسطى ، ونمت الطبقة العاملة ، وارتفع الوعى بين الجماهير فى المدن والريف ، وانبثق الابطال من أعماق الشعب ، فوجدوا من الجماهير سندا ودعامة ، فساروا الى الامام وسار الشعب معهم متطلعا الى مستقبل جديد وحياة حرة سعيدة ٠

تحية أبناء الشقيقة

بقلم محمود الباجي

الا هكذا تبني العروبة مجدها / وتجمعها الآداب والمثل العليا
ويشرق في ظل الصباح صباحها / فتسعدها الذكرى وتطربها اللقيا
تتابع من هذا الخليج مسيرها / فتلتحف الجوزا ، وتنتعل الدنيا
وترسل اشعاع الهداية صافيا / تراثا مشاعا ، لا قروضا ولا ثنيا
وينشا فيها للبطولة موسم / يجسم اشباحا بها طابت الرؤيا
ويسعى حماة الفكر من كل جانب / ليستبقو حمل الذي كان قد اعيا
وتمشي بنا الآداب رابع خطوة / الى نشر امجاد بها ابدا تحيى

❀❀❀

هنا الملتقى باب العروبة فاتح / ذراعيه نلقى في جوانبه رعيا
فسيروا الى الانشاء وابنوا اعزة / صروحا ، وكونوا في مجالاتها وحيا
وقودوا فقد قاد المواكب وحيكم / وانطقتموا صما وبصرتم عميا
وليس سواكم علم الفكر مخلصا / وليس سواكم احسن الامر والنهيا
صنعتم بطولات دفاعا عن الحمى / فلم تكسبوا عارا ولم تكسبوا خزيا
وتكتب في ارض الجزائر قصة / وهل بعدها نحتاج نحن الى فتيا
سنمضي الى الشأو البعيد ونرتقي / الى القمة القصوى ونبتدر السعيا
نفك عن العقل الاسير قيوده / ونعطي لهذا العقل من نورنا شيا
ونحمي التراث الضخم من كل طامع / وقد كان يكفي ان تهدهدنا الرقيا

❀❀❀

رفاقي بني الاعمام عشتم لامة / بكم خطوات العز تقطعها طيا
تحية ابناء الشقيقة (تونس) / يضوع عليكم من ازاهرها ريا
ابلغ عنهم من مشاعر حبهم / فيوضا من الاحساس كل بها يحيى

البطولة كما يصورها الأدب العربي

في الاندلس وشمال افريقيا

بقلم محمد مزالي

سيداتي ، سادتي

سأتحدث اليكم اليوم في موضوع البطولة كما يصورها أدب الاندلس وشمال افريقيا • واني اذ أشعر بشرف تقديم مثل هذا الموضوع الخطير لتتناولوه بالتعليق والمناقشة ، لا أخفي عليكم اني غير راض تمام الرضا عما انتهيت اليه من بحث وتحرير هو الى الارتجال أقرب وبعمل التعميم والتبسيط ألصق وأنسب

ذلك ان هذا الموضوع خلافا لغيره من المواضيع غير مضبوط بزمان ولا باق في حدود مكان ، فهو يتناول الادب العربي في الاندلس وفي جميع أقطار شمال افريقيا منذ الفتح الاسلامي الى يومنا هذا ، مع الرجاء في ان لا يضاف اليه الادب الشعبي الذي هو غني جدا عندنا وزاخر بمعاني البطولة ، ومن واجبي فوق كل ذلك ان أبقى ، وأنا أعالج مثل هذا الموضوع ، في حدود الاربعين دقيقة

فاذا أضفت الى ما سبق اني لم أكلف بعلاج الموضوع والكتابة فيه الا منذ أيام عذرتموني والتمستم ظروف التخفيف لما ستلاحظونه فيه من نقص وبعد عن الغاية القصوى • ويطيب لي بهذه المناسبة ان أجدد أمامكم الشكر لزميلي الاستاذين محمد الفاضل بن عاشور ومحمود الباجي لما أسدياه لي من نصائح كانت خير معين ونعم الدليل

ومهما يكن فاني أرجو ان تكون المناقشة بناءة والتعاليق ايجابية حتى تحصل الفائدة ونفوز بتقرير كامل واضح عن هذه القضية

سادتي ، ان البطولة مثل أعلى لا يزال البشر منذ « بروميتي في الاصفاد » يسعون اليه سعيا ، وعنوان بارز من عناوين المجد والرفعة المعنوية ما فتىء الانسان يحرص على شرف الانتساب اليه والاتصاف به ، وروح ما انفكت المجتمعات تنفخه في أجيالها جيلا بعد جيل ، وتغذيهم به ليكونوا خير خلف لخير سلف ، وينهضوا برسالة القوم التاريخية ، وهي مظهر رائع للجانب الالاهي الذي هو في كل انسان يدفعه الى التمرد على الوجود والاستعاضة عن دنيا الرتابة والخضوع ، والرضا بدنيا الحركة والتجديد والخلق وتجاوز الوضع الذي قد يبدو للبعض قضاء مبرما وطبيعة لا حول للانسان عليها ولا قوة • البطولة هي

اثبات الافراد والجماعات لذاتهم والسمو بها الى « الله » • واذن فليس من الوفاء لروح الكفاح البشرى ولا لانتصارات الانسان على الطبيعة وعلى الجانب غير المعقول منه ان نقع فى ما توحى به الكلمة فى التعبير العامى فنحصر البطولة فى صفة من صفاتها أعنى الشجاعة • ان البطل شجاع ومقدام من غير شك ، والشجاعة أبرز صفاته من دون ريب ، ولكنه لا يكون بطلا حقا حتى يتحلى بجملة من الصفات الخلقية الاخرى يبرز بها عمن سواه وتسمو به الى أعلى مراتب الانسانية الحق ، منها المروءة والاريحية والشعور المرهف بالكرامة والاباء وضبط النفس وقوة الارادة ورجاحة الرأى وحسن التدبير وغيرها من الخصال التى تجعل من الانسان الذى كرمه الله وخصه بالعقل سيدا يخضع لزمام ارادته شؤون نفسه من دون ان يقتل نفسه ، ويسيطر على الطبيعة من دون ان يصاب بغرور تحدى سننها او تجاهل معطيات واقعها ، فتكون الشجاعة فى خدمة الخير والحق وتكون بناءة متحالفة مع التقدم مسايرة للتاريخ بل مسيرة له

فاذا كانت هذه هى البطولة وكان ذاك هو نزوع البشر ــ أفرادا وجماعات ــ اليها منذ فجر التاريخ الى اليوم فلا بد لنا من تحسس مواطنها فى أدبنا القديم والحديث وضبط معانيها حتى نيسر لجيلنا الذى يتوق الى حياة أفضل وعالم أجمل ويهب نفسه كل يوم فى سبيل ذلك تمثل الصورة المثلى يستوحيها ويستمد منها العبر ويتجدد دوما بالتأمل فيها

فان كان ذلك كذلك لنتساءل ــ فى حدود حديثنا اليوم ــ كيف يصور الادب الاندلسى والشمال الافريقى هذه البطولة وماهى نماذجها فيه • ولا بد للاجابة عن ذلك من اتباع منهج تاريخى نستعرض بمقتضاه أهم عصور هذا الادب فى مختلف الاقاليم التى يهمها الامر

ولعل أول بطل تصوره العرب المسلمون فى تاريخهم هو رسولهم عليه الصلاة والسلام • فقد كانت البطولة ، أول ما كانت ، فى نظر شعراء المغرب العربى والاندلس تتجسم على أكمل مظاهرها فى بطولة الرسول الاعظم باعتباره القائد الذى لم يهزم فى موقعه ولم يتراجع أمام عدو ، والشجاع الذى يلوذ به أصحابه اذا حزبهم أمر كما قال عنه الامام على ، والمستميت الذى يثبت ولو تخلى عنه أصحابه • وقد ظهرت الاشادة بالجانب البطولى فى خصائص الذات المحمدية طاغية على كل ما عداها من فنون الشعر وموحية مع الحب الايمانى بكثير من الاناشيد العاطفية والابداع الوصفى • وعرفنا فى المغرب العربى والاندلس شعراء وقفوا أنفسهم على المديح النبوى وأبعدوا فى تمجيد البطولة فى شخص الرسول واستيفاء معانيها وحدودها من سيرته ، وذلك أمثال أبى زكريا يحيى الشقراطسى التوزرى وابنه أبى محمد ومثل أبى عمرو عثمان بن عتيق وأبى يعقوب يوسف بن عبد الملك البكرى وابن جابر الاندلسى وغيرهم

فاذا نظرنا الآن فى أدب الاندلس بالذات والتمسنا منه البطولة وتعرفنا الى نماذجها فيه لاحظنا أولا ان عنصر الملحمة فيه ضعيف نسبيا وان الشعراء

انصرفوا الى وصف الطبيعة والتغني بلذة الحياة وأفراح الوجود حتى انك لا تكاد تجد فى آثار ابن حزم صاحب طوق الحمامة مثلا شيئا يذكر فى هذا الباب وان ما يمكن تميزه من صفات البطولة فى شعر ابن زيدون وابن خفاجة فانما يجب استمداده مما نظماه فى باب المديح . فالحروب لم تغذ الادب الاندلسى تغذية كافية وان لم يكن خاليا منها . فابن عبد ربه نظم أرجوزة فى ٤٥٠ بيتا مدح بها الخليفة عبد الرحمان الناصر وذكر فيها حروبه وغزواته وسجل تاريخ كل غزوة وهى التى يقول فى مطلعها :

وبعدها غزاة ثنتى عشرة ... وكم بها من خيرة وعبرة

وأبو طالب عبد الجبار نظم كذلك أرجوزة هى فى حقيقة الامر ملحمة تصور شخصية ابن تاشفين وتنوه بأياديه البيضاء على الاندلس التى نصرها على الكفار فقد قال الشاعر فى مطلعها :

فاذا أراد الله نصر الدين ... استصرخ الناس بن تاشفين
فجاءهم كالصبح فى اثر غسق ... مستدركا لما تبقى من رمق
وافى أبو يعقوب كالعقاب ... فجرد السيف عن القراب
ووصل السير الى الزلاقة ... وساقه ليومها ما ساقه
لله در مثلها من وقعة ... قامت بنصر الدين يوم الجمعة

وقد درج على طريقة ابن عبد ربه لسان الدين بن الخطيب فى أرجوزته الرائعة التى يحق لها ان تدعى « شهنامة العرب » وهى الارجوزة التى نظم فيها التاريخ الاسلامى ومظاهر البطولة الاسلامية فى المغرب وسماها « رقم الحلل فى نظم الدول »

والى جانب الشعر الملحمى يمكن لمن يتصفح دواوين شعراء الاندلس ان يجد فيما مدحوا به الامراء وكبار القوم معالم البطولة وآيات الرجولة الفذة المتسامية من ذلك ما مدح به ابن دراج القسطلى المنصور بن أبى عامر وما مدح به ابن زيدون أبا الوليد بن جهور صاحب قرطبة اذ يقول :

فرح السياسة اذ ملكت عنانها ... فرح العروس بصحة الاملاك

ويقول ابن زيدون فى مدح أبى الحزم بن جهور أيضا :

لا يوسم الرأى الفطير به ولا ... يعتاد ارسال الكلام قضيبا

وقال فى مدح صاحب بطليوس المظفر سيف الدولة أبى بكر محمد بن مسلم :

نهيك اذا جن ليل العجاج ... سرى منه ـ فى جنحه ـ بدر تم
فسام السيوف بهام الكماة ... وروى القنا فى نحور البهم
جواد ذراه مطاف العفاة ... ويمناه ركن الندى المستلم
يهيج النزال به والسؤال ... ليثا هصورا وبحرا خضم

سهدنا ، لأوتى فصل الخطاب   وخص بفضل النهى والحكم

وهكذا يجمع أبو بكر محمد بن مسلم أهم صفات البطل أى الشجاعة والاقدام والكرم واستقامة الرأى وكل ما به نميز بين الصعلوك الردىء والفتى وبين قاطع الطريق والبطل الهمام

وصورة هذا البطل تبرز هى هى فيما مدح به ابن سهل أبا بكر محمد بن غالب اذ يقول :

حليف جلاد ليس تكسى سيوفه
وثوب طراد ليس تعرى طواهله
تضم على ليث الكفاح حروبه
وتسفر عن بدر التمام محافله
تساوى مضاء رأيه وحسامه
ولان مهزا معطفاه وذابله
تحيرت فيه والمعانى غرائب
أأفكاره أمضى شبا أم عوامله !

ومن آيات البطولة عدم الخضوع الى قوة القوى وجبروت الطاغية والاعتصام بكرم النفس والاباء والشهامة ، فقد قال ابن عباد فى هذا المعنى :

قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو	ع على فمى السم النقيع
ان تستلب عنى الدنا	ملكى وتسلمنى الدموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع

وقد تبلغ شجاعة البطل حدها الاقصى وتقارب اللا شعور بالخطر واللا مبالاة بالمثال المحتوم. فيهب البطل حياته ويجد لذة فى التضحية ويعنى بنوع الميتة أكثر مما يعنى بالغاية منها . فقد جاء فى كتاب أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب ان المعتمد افتتح بلدا « وعليه قميص يشف عن بدنه وحمل على الداخلين فردهم على أعقابهم وقتل منهم فارسا وانزعج الناس أمامه وخلفوا الباب فأمر بسده وعاد الى القصر » والى تلك الحال يشير بقوله :

كم رمت يوم نزالهم	ان لا تحصننى الدروع
ما سرت قط الى القتا	ل وكان من أملى الرجوع
شيم الالى أنا منهم	والاصل تتبعه الفروع

وقبل ذلك نجد الامراء والقواد ينحون هذا المنحى فيفتخرون بما اتصفوا به من جليل الصفات وبما رزقهم الله به من عظيم الخصال ، فهذا ابراهيم بن الاغلب يفتخر بانتصاره ويشيد بحزمه وعزمه فيقول :

ما سار عزمي الى قـوم وان كثروا — الا رمى شعبهم بالحـزم فانصدعـا
ولا أقـول اذا مـا الامر نازلنـي — يـا ليته كـان مصروفا وقد وقعـا
حتـى أجليـه قـهـرا بمعـتزم — كما يجلي الدجى بدر اذا طلعا ٠٠٠

وكذلك حفيده أبو العباس بن أبي عقال بن ابراهيم وهو الذي سهر على اعداد الجيش الذي فتح صقلية اذ يقول في الفخر :

أنـا الملك الذي أسمـو بنفسي — فأبـلغ بالسمو بهـا السحـابا
٠٠٠ أنا ابن الحرب ربتني وليدا — الى ان صـرت ممتلئـا شبـابا

وبقي الشعراء يمدحون الامـراء الابطال وينوهون بخصالهم وبقي بعـض الامراء والقـواد يفتخرون بشجاعتهم وقـوة شخصيتهم وصـورة البطولة هي هي متقمصة لا في الامة او القوم عامة بل في شخص فذ فيه تجتمع مزايا القوم واليه يرجعون في الملمات وبه يعتصمون عند الشدائد ٠ ذلـك ما استخلصناه من أشعار شعـراء الاندلس في مختلف أطواره التاريخية وفي شعـر الاغالبـة والمرابطين وفيما نظم في دولة الموحدين أيضا سواء في مدح أبي حفص الاغماتي للخليفة يوسف بن عبد المؤمن او في مدح عبد الواحد المراكشي للامير ابراهيم ابن يعقوب المنصور او فخر الامير عبد الله الموحدي او في شعر ابن حبوس حول فتح بجاية وشعره فيمن عصى دعوة ابن تومرت ٠ الا انه لا بد من وقفـة ، ولو قصيرة ، عند شاعر عاش في ظل الدولة العبيدية وتغذى شعره بمدح الفاطميين أعني محمد بن هانىء الذي قال فيه ابن خلكـان : « انه عند المغـاربة كالمتنبي عنـد المشـارقة »

ان غالب أشعار ابن هانىء تطغى عليها العاطفة الدينية ، فهو شيعي يؤمـن بالامام وبأنه معصوم وبأنه بطل لا كالابطال وعظيم لا كالعظماء ، لذا نراه يرفع من منزلة المعز مثلا ويسمو به عن مستوى البشر العام حتى يكاد يخرجه من دائرتهم فجاء شعره طافحا بصفات البطولة النادرة ومغاليا في تشخيص آثارها ويكفي ان أذكركم بالقصيد الشهير :

مـا شئت لا ما شاءت الاقـدار — فاحكـم فأنت الواحـد القهـار
وكـأنمـا أنت النبـيء محمـد — وكـأنمـا أنصـارك الانصـار
ان تخب نار الحرب فهو بفتكـه — ميقـادها مضـرامهـا المغـوار

ويقـول عنـه في قصيد آخـر :

هذا ابن وحي الله تأخذ هديهـا — عنـه الملائـك بكـرة وأصيـلا

ويقـول عنـه في قصيد آخـر :

النـور أنت وكل النـور ظلمة — والفـوق أنت وكل فـوق دون

ونجد نفس الغلو ونفس الخيال المولد الى أبعد حدود التوليد في ما نظم هذا

الشاعر من ملاحم تشيد ببطولة قواد المعز وبالاخص جوهر الذى وصف بطولته فى قصيدة مشهورة قالها بمناسبة خروج الجيش بقيـادته من تونس الى مصر وتوفيقه فى ذلك ، ومطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبنى العباس : قد قضى الامر
وقـد جـاوز الاسكندرية جوهـر ... تطالعه البشـرى ويقدمه النصـر

الـى ان يقـــول :

أفى الشمس شك انها الشمس بعد ما ... تجلت عيانا ليس من دونها سـتـر
ومـا هـى الا آيـــة بعـد آيـــة ... ونذر لكم ان كـان يغنيكم النـذر
فكونوا حصيدا خادمين أو ارعووا ... الى ملـك فى كفه الموت والنشـر

والى جانب ذلك كله يجد مؤرخ الادب تطورا فى معنى البطولة وفى الغـاية منها عند ما هددت أرض الاندلس بالسقوط ثم عند ما سقطت واستولى عليها الاسبان وأخذ نجم المسلمين فى تلك الربوع فى الافول ، فاذا بالشعر حنين الى المجد التليد وشوق الى الايام الغر وتغذ من العاطفة الدينية الباعثة على التضامن مما هو موجود فى أشعـار ابن عبدون وأبى البقاء الرندى فى شعـر ابن الخطيب ونثره الذى يقول فيه فيما يقول :

« ٠٠ أيها الناس ، اخوانكم المسلمون فى الاندلس ، قد داهم العدو ساحته ، ورام الكفر استباحته ، وزحفت أحزاب الطواغيت اليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهـاد ، الجهـاد قد تعـين ٠٠ ! »

وضرب آخر من البطولة لا بد من ذكره أيضا هو ما نجده فيما نظمه الشعراء حول اعتداءات الروم على ثغور شمال افريقيا ، فأصبحت البطولة تمتزج بقهر الروم والانتصار عليهم وتخليص الافارقة من قبضتهم ، وأصبح فى ذلك العصر اسم أبى الحسن المرينى طاغيا على شعر البطولة فى جميع أقطار المغرب العربى التى حكمها والتى لم يحكمها ، ويظهر ذلـك فى قصيد أبى القـاسم الرحـوى التونسى الذى أنشده بـين يديه وكانت بطولته أشـد تأثيرا على الشاعر من تحمسه لوطنه المغلوب على أمره وعرشه المنهار ، قال :

أجابـك شرق اذ دعـوت ومغـرب ... فمكـــة هشت للقـــاء ويثـــرب
وحيتـك أو كـادت تحيى منابـر ... عليها دعـاة الحـق باسمك تخطب

الـى ان يقـــول :

تملكت شطر الارض كسبا وشطرها ... وراثـا فطاب الكـل ارث ومكسب
بجيش عـلى الالواح والمـاء يمتطى ... وجيش على الضمر السوابق يركب

وجيش من الاحسان والعدل والتقى ... وذاك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب الا يزين راكبا ... ولا راكب الا به ازدان مركب
ولا رمح الا وهو أهيف خاطر ... ولا سيف الا وهو أبيض قاضب
له من عجيب السحر بالقول أضرب ... وفى هامة القوم المضارب مضرب
شرعت من الاحسان فينا شريعة ... تساوى بها ناء ومن يتغرب

فالبطولة حينئذ خوض المعارك وكسب الانتصارات وبسط العدل والاحسان وحماية الديار والتخوم وبذل العطايا والمنح ، ويقول شاعر صقلية أبو عبد الله الحسين بن علي القائد يصف بطولة أحمد بن ثقة الدولة ويغريه بمنازلة روما :

فكم من معقل للعين سام ... سلكت اليه منهاج الرشاد
وقد حارت نفوس القوم فيه ... الى ان قام فيهم منك هاد
فأصعدت الخيول الى الروابى ... وأنزلت الوعول الى الوهاد
وكم أحرجت منها من كمين ... ومن عضب ومن طرف جواد

الى ان يقول :

كأن رؤوسهم كانت نباتا ... أبادته سيوفك بالحصاد
وأما رومة فالى قريب ... يصبحها بداهمة الحداد
عبيدك من تؤم من الاعادى ... ورزقك ما تروم من البلاد
فدونك يا عميد الملك فاعمد ... تنل ان رمتها ذات العماد

فالبطولة هنا تتأثر في مقياسها الى حد بعيد بما يكون للشاعر فيها من مغنم شخصى فوق ما تستجمع من معانى الاكبار والتقدير والمجد وهى بهذا الاعتبار مظهر من مظاهر الشكر والاعجاب معا

فاذا عدنا الآن الى أثر سقوط الاندلس فى الادب عامة وفى معنى البطولة خاصة ، قلنا أن عقدة الهزيمة استحكمت فى النفوس اثر انهيار الاندلس وتلاشى الامل وبلغ الامر أقصى حده بالغارة الاسبانية التى شنها « شارلكان » على المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبيا ، فجاءت انتصارات السلطنة العلوية بالمغرب والسلطنة العثمانية فى ليبيا وتونس والجزائر منقذا للرمق الباقى من الشعور بالكيان القومى وباعثا للشعور بالكرامة ومجددا لبوارق من الامل فى النجاة من الدمار الماحق · فأصبحت هاتان السلطتان المشرقية والمغربية قطب الحركة الملية ومجتمع المشاعر وصار تمجيدهما والتفاخر بما لهما من الغزوات التى ردت كيد الاعداء المعنى المعتمد عليه فى اثارة روح الهمة الدينية والكرامة ، وأصبح التعلق بكل من السلطنتين أمرا مشاعا بين أصحاب النفوس اليقظة فى المغرب العربى ، مقطوعا فيه النظر عن مرجع الحكم السياسى · فاننا لنجد فى نصوص الخطب والرسائل والقصائد التى أنشأها أدباء المغرب الاقصى تعلقا

بتمجيد السلطان العثمانى ، كما نجد فى ما أنشأه من مثل ذلك أدبـاء الجزائر وتونس وليبيا ، وهى التابعة لحكم السلطنة العثمانية ، تمجيدا لسلاطين المغرب الاقصى وتنويها ببطولتهم الجهادية ، وان هذه الحقيقة لتظهر فى المراسلات التى كان يحررها الكاتب ابن أبى الضياف فى منتصف القرن الثالث عشر على لسان أمراء تونس الى السلطنتين العثمانية بالمشرق والعلوية بالمغرب ، حتى ان الواقف على تلك الرسائل ليحتار فى التوصل الى تحقيق الارتبـاط السياسى. لاولئـك الامراء الذين صدرت الرسائل بلسانهم ، مـع ان الوضع من الجهـة القانونية والواقعية قد كان واضحا لا لبس فيه

وقبل ذلك نجد شعراء القرن الثانى عشر والنصف الاول من القرن الثالث عشر قد طفح شعرهم بتمجيد سلاطين المغرب الاقصى وتعليق الآمال على همتهم حتى انتهى الشاعر أبو عبد الله الورغى الى ان أعرب عن مدى أمله فى السلطان العـلوى بقــوله :

حتى أرى خيلــه فى أرض أندلس   تعيد من هيبة الاسـلام ما فقـدا

وكذلك نرى وجهة الاعجاب بالبطولة كانت مولية نحو المغرب الاقصى متخذة من عروبة السلاطين العلويين ونسبتهم الزكية أقوى سند للاعجاب وسعة الامل

فلما نزلت بالعالم الاســلامى عامة والمغرب العربى خاصة كارثـة الغـارة الفرنسية على الجزائر ساد الوجـوم وعاود النفوس مركب النقـص باستسلام القوات العثمانية وعجز سلطنة المغرب الاقصى عن الدفاع عن نفسها فى وجـه الغارتين الفرنسية والاسبانية ، بله تخليص الجزائر

وكان لهذا الشعور المرير رجع عكسى ملأ النفوس أملا واندفاعا فى طغيـان الحماسة لما تحرك البطل العظيم الامير عبد القـادر متخذا من الضعف قوة صال بها فى وجه الغارة الاستعمارية صولته التى لم يزل تاريخ العالم الحديث يتجاوب بأصدائها ، فانقلبت بموقفه الآية وذابت فى حركته الفوارق الانانية والاعتبارات السياسية ، حتى ان سلطان المغرب الاقصى بنفسه قد ربط معه صلات أدبيـة سجلتها مراسلات ذات قيمة بارزة فى التاريخ الادبى ، عـلاوة على قيمتها فى التـاريخ السيـاسى

فقد اطردت المراسلات بين الامير عبد القادر وبين السلطان عبد الرحمان بن هشام سنينا كان فيها السلطان يتفنن فى اظهار اعجابه بالامير عبد القـادر فى تحاريره بصيغ أدبيـة ممتازة ، وينظم القصائد فى تهنئته والثناء على جهـاده والاشادة بفتوحه وانتصاراته

وقد اطلع ـعند الاستاذ محمد الفاضل بن عاشور على نص وثائق مجموعة من تلك المراسلات ، هى وثـائق فريدة فى قيمتهـا ، أرجو ان يعتنى بتحقيقها والتعليق عليها ونشرها فى مجلة « الفكـر » وهذه أبيـات أسوقها على سبيل

المثال المشوق ، وهى من القطعة التى صدر بها المكتوب الطويل فى التهنئة بفتح تلمسان فى ربيع الثانى من سنة ١٢٥٥ هـ ، اذ يقول :

بشرى بفتح كسا الاسلام احسانا ... وصار منه لعين الدين انسانا
أضاء فى أفق هذا الغرب مشرقه ... وبشر القوم انسانا فانسانا
صنع جميل سمت فضلا صنائعه ... لوحشة الدهر والايام أنسانا
وكيف لا وبه ازداد العلا وسما ... وطهر الله مولانا تلمسانا
فأصبحت ووجوه السعد مشرقة ... بها جهارا كأن الكفر ما كانا
لله فتح غدا للذكر فاتحة ... وصار كالخط فوق الكتب عنوانا
وخط فى صحف التوفيق كاتبه ... خطا أقام على الاسعاد برهانا
لا زال يستخلص الاقطار منتصرا ... ثغرا فثغرا وأوطانا فأوطانا

لكن اليأس استولى من جديد على النفوس بعد انهزام الامير ومرت فترة استسلام انتهت بظهور الخطر البلقانى فتجددت الحمية وتجدد الاتجاه الى السلاطين العثمانيين وخصوصا الى محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد واتخذ الادب نماذج فى البطولة من القواد الذين برزت شجاعتهم فى الحروب البلقانية والحرب الطرابلسية وظهرت فى الشعر خاصة أسماء : أدهم وأنور ومصطفى كمال ، خصوصا فيما كتبه صالح سويسى والخضر بن الحسين والشاذلى خزندار الذى عارض قصيدة شوقى الشهيرة :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

فواكبه فى النظر الى قصيدة أبى تمام وقال :

يا سفر «سيفر» وان خطوك بالذهب ... السيف أصدق أنباء من الكتب

أما الادب الحديث فى المغرب العربى فقد تغنى ببطولة الاجداد والماضى المجيد لتحريك السواكن وبعث الهمم واقتلاع أسباب اليأس والخنوع من النفوس أولا ثم هو واكب الحركة التحريرية الجهادية ، ثانيا لما انتفض المغرب العربى بجميع أقطاره ينشد الحياة فى بطولة نادرة وعزيمة حديد ٠ ولا يمكن هنا ان نذكر جميع الشعراء الذين تغنوا بالبطولة للرفع من معنويات الشعب ولا ان نتوسع فى تحليل أغراضهم ، فلنكتف بذكر بعض منهم على سبيل المثال :

فهذا الشاعر الخضر حسين ينظم قصيدة فى ١٢٢ بيتا يتغنى فيها ببطولة عبد الرحمان الناصر ، صقر قريش ، يستهلها بقوله :

خل نفس الحر تصلى النوبا ... لا تبالى
ليست الاخطار الا سببا ... للمعالى

وهذا الشاعر سالم بن حميدة ينوه بالفتوة وبالتضحية فى سبيل الوطن فيقول :

فخـــير للفتـــى مـــوت بعـــز من المـــوت المجـــدد والسقـــام
فما عـــاش الذليـــل بفضل ذل ولا مات العـــزيز من الصـــدام

وهذا الشاذلى خزندار ينادى بما تفرضه البطولة من صبر وصمود وايمـان وتضحية فى قصيدة أنشدها اثر نفى سبع من الزعماء ، اذ يقول :

نبكـــى لفرقتـــهم وهـــم آحيـــاء سبعـــا بكتهم تونـــس الخضراء
ما كان فى كفـــى الحسام وانمـــا مـــن تحت فكـــى حيـــة رقطـــاء
أرسلتهـــا حصبا على مغتالهـــم فتـــريه مـــاذا يفعـــل الشعـــراء
سأهز من قومى الذين بلوتهـــم مـــا ترتضيـــه الهمـــة القعســـاء
عربية الاحساس فى نخواتهـــا لله تلـــك النخـــوة العـــربـــاء
لا تخلدوا فشلا لفـــل هزيمـــة ولو ادلهمت سحبهـــا الظلمـــاء
دعهم يريقوا يزهقوا يستنزفوا ينفوا يبيدوا يفعـــلوا ما شاءوا
واسترسلوا فى الامر دون تراجع فالجبـــل منـــه انشقت الصمـــاء

وهذا الطاهر الحداد ينوه ببطولة الشعب التونسى فيقول :

يا شعب تونس يا شعب المجاد لو وعيت ماضيك المسطور لـــم تهب
خلقت للموت فى حفـــظ الكرامة لا للجبن تلبسه عـــارا مـــع الحقب
هيا بنـــا يا بنى الاوطان نسعدهـــا لا خـــاب من طلب العلياء بالـــدأب

ونراه يستنهض الهمم فى قصيدة أخرى مطلعها :

طـــال بنـــا النـــوم فهيا انهضوا نحـــو المعـــالى أيهـــا الهجـــع

ونجد الشاعر بالمغرب العربى يتحين الفرص ليبلغ شعره وما تضمنه من معان سامية حافـــزة الى العمل لمواطنيه ، وهذا الشاعر التونسى عبد الرزاق كرباكـــه يتجاوب مع زميله الرصافى فى العراق ويتعاطف وينظم قصيدة يهديها له عند ما مرت على الرصافى ازمة نفسية وشعر باليأس ، وروت الجرائد بتونس انه خرج من بغداد هائمـــا على وجهه ، فيذكره عبد الرزاق كرباكه بـــأن البطل هو من يستسهل الصعب ويقتحم الاخطار وهو الذى يجاهد فى سبيل الحياة الكاملة من غير استسلام لليأس ، فيخاطبه بقوله :

شيخ الرصافـــة جل ما تصبو لـــه أتريـــد ان تلقـــاه سهـــلا أيســـرا
أيـــن البطـــولة عند ذاك وأين مـــا يلقى المجـــاهد وهو يقتحم الـــذرا

ثم يختم هذه القصيدة بدعوته الى الامل قائلا :

والى العـــلا ان الجـــلالة فى العـــلا والى الـــذرا ان الكرامة فى الـــذرا

وأعتقد بعد هذا انه لا فائدة فى ان أتحدث أمامكم عن بطولة أبى القـــاسم

الشابى الفكرية وعما أودعه شعره من معانى البطولة وعما كان له من الفضل فى تحميس الشباب وحفزهم الى خوض المعركة . فهو الشاعر التونسى بل الشاعر المغربى الوحيد الذى عرفه الشرق وطالع ديوانه كاملا ، ويكفينى ان أذكركم بالبيتين الشهيرين :

اذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد للظلم ان ينجلى ... ولا بد للقيد ان ينكسر

ثم جاء طور المعركة الحاسمة فلم يتخلف الشعر ولم يتخلف الادب ، واذا بالشعراء يتغنون بالمجاهدين الاحياء منهم والاموات واذا فرحات حشاد والهادى شاكر وجميلة بوحيرد وغيرهم ممن يقودون اليوم الشعوب الشمال الافريقية رموز لما يجب ان يتصف به كل مواطن وكل مواطنة من صفات البطولة والاريحية الوطنية

وانك اذا طالعت ما ينظمه شعراء المغرب العربى اليوم لتلاحظ ان البطولة التى يتصورونها بطولة أصيلة شريفة متسامية توفق بين الشجاعة والرأى وتجعلهما الاثنين يخدمان المثل العليا والقيم الانسانية الخالدة .

فهذا المجاهد التونسى يقول فى شعر منور صمادح بعد قذف الطائرات الفرنسية لساقية سيدى يوسف الشهيدة :

سوف لا أقتل أطفالا كما هم قتلوا
سوف لا أعدم نسوانا كما هم حللوا
سوف لا يغدر فى أرضى السليم الاعزل
أنا جندى شريف وشجاع بطل
سألاقى الجيش لا العزل لا لا أفعل

والبطل فى أدبنا المغربى الحديث ثائر لانه لا يطيق الضيم ولا يصبر على الذل والهوان ويتحمس بقدر ما يمعن العدو فى القمع ولكنه يعلم ان الثورة وسيلة لا غاية لانه ليس بالفوضوى الذى يلتذ بالهدم والقتل من حيث هما ، ثورته سبيل الى العالم الافضل الذى ينشده . وهذا الشاعر الجزائرى أبو القاسم خمار ينظم الشعر الحماسى فتشتد لهجته ويدرك ان عاطفته الجارفة ليست طبعا فيه لانه عنصر بناء لا تخريب وعامل خير لا عامل شر فيلتمس العذر من أخيه القارىء قائلا :

لا تلمني أخي فما لام جندي أخاه الا وأعقب عذرا
ان حظي من بهجة ان أحيا أبيا أو ان أموت أبرا
كل جيل ودوره ... ولقد كان لجيلي معامع الحرب دورا
هكذا أملت المقادير ان ثوروا فثرنا لنقهر البغي قهرا
لا تلمني ، وسائل العقل عني كيف أبدو لو أنني كنت حرا !

والبطولة التي يصورها أدبنا المعاصر في شمال افريقيا بطولة انسانية نزاعة الى الحياة الانشائية تواقة الى المستحيل « ترغمه على الامكان » ، زاخرة بالمحبة والاخاء ، هي بطولة تصور الحياة الزاهية الجميلة توهب في سبيل الحياة الحية ، بل استمع الى هذه الابيات التي اقتطعها من قصيدة طويلة للشاعر التونسي أحمد مختار الوزير نظمها منذ أسابيع قلائل بمناسبة دخول الثورة الجزائرية المباركة في عامها الخامس وأهداها الى بطلة الجزائر وفخر شبابها جميلة بوحيرد يصفها وقد حملها الوعي الى الكفاح والانضمام الى اخوانها المجاهدين في سبيل العزة القومية فيقول :

وسارت جميلة بين الشعاب تنقل كالظبية الصاديه
وعانقها النور ، نور الضحى وأبصرها فذة غانيه
وأبصر من عينها راميا ألا حبذا الاعين الراميه
وباركها النور ألوانه وألبسها حلة زاهيه
وسارت ترنح ، مختالة على صخرة الاطلس النابيه
فوجه سني وروح أبي وحب سخي ، وهذا هيه

ويختم القصيد فاذا جميلة رمز الحياة توهب في سبيل الحياة والوجود الاكمل :

جميلة أنت الوجود بما تريدين مختارة راضيه
وانت الحياة وأكوانها بما فيك من عزمة ماضيه
وذاك الاله السخي السناء يبارك أحلامك الزاكيه
هو الحب كوثره زاخر وأثمار جنته دانيه
فكوني لقومك كوني لهم من الحب آيته العاليه

وأحب ، سيداتي سادتي ، ان أختم هذه العجالة بهذه الابيات الزاخرة حياة ، الطافحة أملا ، النابضة محبة وبطولة وايمانا بمستقبل الجزائر والمناضلين في كل مكان في سبيل الوجود الحق والكرامة والاستقلال وما اليه يسعى كل بطل في كل زمان ومكان .

تحية الجزائر

بقلم صالح الخرفي
(الجزائر)

من منبر (الاوراس) حي المجمعا   « فالضاد والرشاش قد نطقا معا »
فانظر هنا تجد البطولة منبرا   وتر البطولة في الجزائر مدفعا
لم ترو غلتنا المنابر ، فارتقيـ   ـنا للخطابة (أطلسا) متمنعا
تلك الذرى كم زمجرت برصاصها   فأرت لنا منه الخطيب المصقعا
وهمر موطأة المتون لثائر   روى صنوبرها دما فتفرعا
فاذا امتطاها غاصب مادت به   وعلى جلامدها تلقى المصرعا
الله ورث قلبنا حب الردى   ويقينه بين الجوانح اودعا
فلو ابتغينا عنهما بدلا ، نعا   نا امسنا ومصيرنا فيمن نعى
فلذات اكباد لنا ، دسنا عليـ   ـها في الثرى ، وبها الفؤاد تطوعا
ان يفن جيل شب في حجر المظا   لم ، فارتقت جيلا اعز وأمنعا
في ساحة الهيجاء مسقط راسه   وعلى حجور الطاعنات ترعرعا
فلرب ام ارضعت طفلا لها   بعد الفطام دماءها والادمعا
فنما ابي النفس يشكر حرة   عرفت بألبان البطولة مرضعا
لم نأت بدعا انما اسبابنا   ببطولة الاجداد لن تتقطعا
ثرنا ، ولكن لا لقطر واحد   ثرنا لاقطار العروبة اجمعا
من قال عنا في العروبة قالة   فقد افترى عنا خيالا وادعى
هي بعض ما ينساب بين عروقنا   هي بعض دقات تهز الاضلعا
هي طرفنا ان مسه يوما قذى   متطاول فلقد اقض المضجعا
ولو ارتضينا بالمذلة عيشة   لمشى الطغاة بها الينا ركعا
لكن حرف الضاد في لهواتنا   يأبى لغير العز أنْ يتضرعا
وحشاشة انفت - ولو ادى بها   الاجهاد - ان تستجدي المستنقعا

وعلى الجزائر بنت يعرب كم ... يَعِزُّ قَفَا العروبة ان يهان ويصفعا
ولقد نعفر في الثرى منا الخدو ... د ، فدا له في ان يعيش ممنعا
كف الجزائر وهي تقطر بالدما ... كف الجزائر وهي تحضن مدفعا
و قيل : من اين الضماد او السلا ... ح ، لوجهت نحو العروبة اصبعا
ولوب اقراص فرنسية ، سقت ... سما ، به قلب الجريح تقطعا
فرنا الى جيرانه طرف له ... فاغاثه حر الدواء فانجعا
لا زال يحمده ، ويهدي اهله ... عبرات شكر لا يفارقها الدعا
عرج ، ولا تنس الكويت ، فانها ... كم ارقأت بيد السماحة مدمعا
دار يفيض التبر في جنباتها ... لكنها ببريقه لن تخدعا
لم تنس آلام الجوار ، ولم تزل ... يوم الحفاظ ، تمد كفا مترعا
رحبت مغانيها لطلاب العلا ... وصفت لهم نبعا وطابت مربعا
ولو ان كاهلنا ينوء ، أناءه ... حمل الايادي منكم فتزعزعا
بالنصر نشكر من غداة الروع في ... اسعافنا ضرب المثال الاروعا
يا عرب ليس بمامن سور العرو ... بة ان تداعى عندنا وتصدعا
لا تهنأوا او تجعلوا لرسالة ... الادباء من ارض الجزائر مجمعا
بشر عروبتنا بفجر باسم ... وعلى ليالي الظلم كبر اربعا

البطولة في الأدب العربي

من سقوط بغداد حتى فجر النهضة الحديثة

بقلم شكري فيصل - سوريا -

حين كان ابن الاثير يكتب تاريخه الكامل يقص فيه سيرة هذه الامة التي خرجت من الجزيرة تحمل دعوتها ولغتها ورسالتها الى النـاس ، وتنشر مثلها الرائعة وقيمها الكريمة ، حيث كانت تحل من الارض ، وتخرج الناس من اسار العبوديات الثقيلة وتطلقهم في آفـاق الحيـاة الحرة ، وتنفخ في وجودهم المتداعي روح الوجود الحق الذي يربط الانسان بأسمى ما في الانسان ، بعقله ويربط عقله بابعد آفاقه ، بالله . . كان ابن الاثير يمر بهذا التاريخ باحداثه ووقائعه صفحة بعد صفحة وسنة بعد سنة ، كان يحرص على ان يكون عرضه وتناوله سليما نقيا . . يجتهد في تحري الصواب وسند الحادثة التي تستحق الاسناد الى اصحابها . . ولكنه على كل حـال كان في اكثر اجزاء تاريخه حريصا على ان يقف من الوقـائع والاشخاص والاحداث موقفا موضوعيا . . وقد يتأثر بهذا العامل او ذاك ، وقد ينفعل هذا النوع من الانفعال الملائم اوذك من الانفعـال المعاكس ، ولكنه على كل ذلك كان حريصا على ان لا يدع لهذا الانفعال ان يكون له انعكاسه فيمـا يروي او ينقل . . انه بمعنى آخر حرص على ان يقف من الاحداث موقفا حياديـا . . فاذا انت تقرؤه حين تقرؤه فلا يصدمك فرحه وحزنه ، رضاه او سخطه . . وما اكثر الاحداث التي مر بها والوقائع التي عرضها وما اغنى هذه الاحداث والوقائع منذ نشأت هذه الامة العربية الجديدة . . . . ولكن ابن الاثير هذا حين بلغ الحديث عن قصة اعنف غزوة همجية سربلت العالم ، والتهمته كما يلتهم حوت هائج سمكة وادعة جميلة ترقص اجنحتها السحرية رقصة الحياة السعيدة ، حين بلغ هذا كان مجرد ذكرى هذه الغزوة يثير عنده الهول والفزع . . ومن المؤكد انه أحس الجفاف في حلقه وان قلمه الذي انفرج عن الحديث الشهي الطيب رجف في يديه رجفة الاشفاق ان يسطر قصة هذا السيل الهمجي الغاشم الذي اتى في طريقه على

كل معالم الحضارة التي صاغتها الحياة العربية من الق عيون ابنائها ذرة بعد ذرة ، من توهج الابداع وبريق الحدس ، من صوب العقول ، وحصاد الذهن البشري الذكي حين يجمع الى ثقافته كل الثقافات التي سبقته ، والى تجاربه كل التجارب التي تقدمته ، والى حماس الرغبة قوة الارادة وجلد البحث ، وأدب العمل وسهر الليل الطويل في سبيل الحروف والرمز والكلمة والفكرة . . وفي سبيل الخط والرقم والمعادلة وفي سبيل الصبغ واللون والتركيب . . حتى كان من كل ذلك هذه الحضارة التي انتشلت ماضي الانسانية وانقذت الفكر القديم من وهدة الجهالة التي آل اليها ثم اغنته ورفدته وأضفت عليه وأضافت اليه وشقت له طريق المستقبل ، هذا الذي يعيش فيه اليوم . . اجل لقد رجف القلم في يدي ابن الاثير . . مما ارتضى ان يكون هو الذي يسطر للاجيال لكل الاجيال الانسانية من بعده هذه المأساة . . فأغفل الحديث عنها سنة بعد سنة ودافعه عاما بعد عام . . حتى اذا لم يجد متأخرا بدأ حديثه عن سنة سبع عشرة وستمائة بهذه الصفحة التي صاغها من دموع عينيه ودموع قلبه على السواء . . هذه الصفحة التي كانت كأنما هي دفعة آهات حرى . . ولو كان لها هذه الصفحة ان تحيا في وجدان شاعر لصاغ منها اروع أناشيد الالم في تاريخ الانسانية منذ كانت .

تمنيت ايها السادة لو قرأت عليكم هذه الصفحة . . انها تصف كيف خرج التتار كالسيل الهادر يجرف كل ما في طريقه ، فاذا الاشجار احطاب وخضد ، والبيوت احجار ، والمدن خرائب . . واذا العاصفة تذرو كل شيء واذا هؤلاء المنطلقون كانهم جن اسود ، قد انشعبوا هنا وهناك كاقدام الاخطبوط مسلطة في كل وجه ، فاتوا على المدن كما يأتي سرب من جراد على جنة ارض . فيجعلها جذوعا يابسة ، لا ثمر ولا شجر . . والى ذلك آل امر كاشغر وسمرقند ، وتعالت ألسنة النار في بخارى ، وقودها كل ثمرات الفكر وقطع الخارجون خراسان تخريبا وقتلا ونهبا ، ثم تجاوزوها الى الري وهمذان ، والجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق . . اما اذربيجان فقد قتل اكثر اهلها لم ينج الا الشريد النادر . . ثم قصدوا القفجاق « القفقاس » فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون الى الغياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم واستولى عليها هؤلاء التتر . . ومضت طائفة اخرى منهم الى غزنه وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مافعلوا

في غيرها ، وانطلقوا في كل صوب لا يمنعهم مانع .. والتقى على هذا الوطن الكبير خطر هؤلاء التتار من نحو ، وخطر الصليبيين الذين قصدوا دمياط من نحو آخر ، واشرفت ديار مصر والشام وغيرها على ان يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم كما يقول ابن الاثير . اما الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق ..

تلك كانت الصورة الكالحة لوطننا الكبير في هذه الفترة : خطر خارجي محدق ، واطراف مهددة ، وفتن داخلية مضطرمة .. لقد تقدم التتر واستقام لهم هذا الامر لعدم وجود المانع على حد تعبير ابن الاثير .. اجل ايها السادة لم يعد هناك هذا المانع الذي يقف لهذه القوى الخبيثة ، المهاجمة ، المفاجئة .. لم يعد هنالك مانع مادي ، فقد تبددت القوى وتكسرت الوحدة واخذت تآكل اطراف هذه الدولة الكبرى مع الاحداث حتى لتوشك هذه الاحداث ان تنال القلب .. بل انها نالت فعلا بغداد مع التتر ، واطراف الشام وسواحله مع الصليبيين ، .. وضاقت على هذا القارب العربي الذي كانت الآفاق البعيدة ادنى حدوده ، ارضه من حوله ، واختلف فيه الملاحون وعزفت الامواج على المجاديف نشيد الموت لولا ان الشعلة التي انطلقت من الجزيرة كانت لا تزال تتألق كالشموع في بعض النفوس الصافية ، تغالب ظلمة الليل وتنهض وحدها لجيوشه السود تكشفها وتفضحها ، وتحمل خفقاتها معنى القلب الذي لا يزال ينبض بالحياة .. ولو لا ان القارب لم يعدم بعض ملاحيه كنور الدين وصلاح الدين والظاهر كانوا ينذرون ارواحهم لحمايته ، ويقف الواحد منهم وراء الآخر في سلسلة الاحداث اروع ذكيا كجبل شامخ يستعلي على كل ما في الوادي والسفح، يعري ذراعيه وقد بدت عروقهما يحرز السفينة ويسير معها وسط الضباب والموج من مسرب الى مسرب حتى ينتهي بها الى الامان .

في هذه الفترة وفي فترات حولها ، قبلها وبعدها ، كانت البطولة التي تكشفت عنها الروح العربية في ذلك الحين تعني المقاومة والتكبر على الاحداث .. اريد ان اقول تعني نشأة المقاومة وتكونها وتجمعها حتى تقف للاعصار الآتي من الشرق والآتي من الغرب على السواء للاعصار التتاري وللاعصار الصليبي ، وبدت هذه البطولة في دفع الصليبيين مرة بعد مرة حتى خرجوا عن مصر والشام ،

وارتدت القدس مدينة من مدن العرب وحرما مقدسا من حرمات الاسلام.. وانكشف الدخلاء عن الساحل والداخل، وتبدت كذلك في هـزيمة التتار، والوقوف بمدهم هذا الطاغي في معركة عين جالوت حين رد الملك الظاهر جيشهم العاتي واذاقهم طعم الهزيمة بعد ان كانوا لايعرفون الا حلاوة الانتصار.. وكانت بطولة جيش الظاهر لا تحمل معناها المادي، فلعل معناها المادي هذا ان يكون اضعف ما فيها.. وانما تحمل معناها البعيد في صيانة الحضارة وحماية المدنية وثمرات الفكر ان تكون طعمة للنار يوقدها رعاة الاغنام والابقار والخيل.

والمقاومة: روح المقاومة وخلق المقاومة، وايقاظ معاني المقاومة والحيلولة بين الناس وبين ان يغرقهم الاستسلام ويتملكهم اليأس، وإثارة كل ما في نفوسهم من امجاد وقيم، وشدهم الى مثل اعلى هدفه ان يدفع الدخيل الخادع وان يمكن للاصيل الامين، هذا كله ابرز معاني البطولة في جزء كبير من هذه الفترة التي احدثكم عنها.. انها لم تكن بطولة مادية وانما كانت بطولة راي وكفاح من دون هذا الراي، وبطولة تجرد وجهاد في سبيل هذا التجرد.

ولقد تعودنا ان نجد معاني هذه البطولات اول ما نجدها في عصر من العصور عند شعرائنا.. لان شعراءنا كانوا بحكم انهم من ابناء هذه الامة من نحو، وبحكم صلاتهم بالسلطان من نحو آخر. كانوا اقدر الناس على ان يعبروا عن هذه المعاني وان يحسنوا صياغتها.. كان فيها التعبير عن انفسهم وكان فيها كذلك تحميل اصحاب السلطان مسؤوليتها مما وضعهم امام مسؤولية التاريخ والزمان.. ومن هنا كان شعر المديح جديرا ان ينظر اليه في تقويمنا للتراث الشعري وفي دراستنا الادبية نظرة اخرى.. إنه ليس دائما خور استجداء ولا ذلة استعطاء.. إننا نظلم روح المتنبي الدافقة وشموخ أبي تمام المستعلي وتمكينهما للقيم الاصيلة في النفس العربية حين نعد شعرهما في المديح مديحا فحسب.. بل لعل المديح ان يكون ثوبه الظاهر قالبه او شكله الخارجي او مناسبته العارضة.. إن الروح، روح تقديس الاستشهاد عن نصر او هزيمة، هي التي املت على أبي تمام رائيته في رثاء محمد بن حميد الطوسي.. وهدير الروح العربية العميق كهدير المياه الجوفية تنبجس من نبع متدفق هي التي كانت تدفع المتنبي ان يقول ما يقول مؤمنا بسيف الدولة او كافرا بكافور.. ومن ذا الذي يزعم ان العطاء وحده هو الذي كان يدفع

القيسراني الى أن يقول مهنئا وزير نور الدين « جمال الدين ابو جعفر الجواد » بفتوح مدينة الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة :

اما آن ان يزهق الباطل وان ينجز العدة الماطل
الى كم يغب ملوك الضلا ل سيف بأعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب وقد زأر الاسد البازل
هو السيف إلا تكن حاملا لبزته بزك الحامل

الى ان يقول يستعجل فتح القدس واستخلاص السواحل :

فان يك فتح الرها لجة فساحلها القدس والساحل

وهل كان العطاء وحده هو الذي يدفع القيسراني ان يقول مهنئا نور الدين باستقرار امر دمشق له ، نافضا بين يديه احلام الناس وامانيهم :

كأني بهذا العزم لا فل حده واقصاه بالاقصى وقد قضي الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طهر

أليس هذا الذي كان يقوله هؤلاء الشعراء في هذا العصر المتأخر اوذاك المتقدم انما يعبرون به عن روح الجماعة المنطلقة ، عن آمالها التي تتحرق في اعماقها اندفاعا للوصول اليها؟ . الم يكن هؤلاء الشعراء في هذا لهاة الناس ولسانهم . ليكن مايكون من امر هذا القالب الخارجي الذي صيغ فيه هذا الشعر . . ليكن المديح قالبه، وطلب العطاء بعض مافيه ، فليس ذلك شيئا امام روح الامة التي كان يعبر عنها الشعراء بهذا الشعر . . وقد آن لنا بعد ان نسمي الاشياء باسمائها البعيدة وان نطرح عنها هذه الاثواب الزائفة التي كسيت بها . . آن لنا ان نقول ان مانسميه هجاء اومديحا ليس الا طرفا عارضا في القصيدة ، وان القصيدة من قبل ومن بعد ليست حين تكون في موضعها الحق من الصدق النفسي والتجاوب مع مطامح الجماعة والتعبير عن مطامحها والتمثيل لتطلعها ليست الا روح هذه الجماعة وتصويرا لمثلها الاعلى وتعبيرا عنه .

واذا كان هذا حقا في اكثر فترات الازدهار في حياتنا الادبية ، تدل عليه القصائد ، وتنبىء عنه الاشعار . . فان فترات الانحطاط بعد سقوط بغداد تؤيد ذلك تأييدا سلبيا . . ذلك اننا ننظر في الشعر الذي قيل في هذه الفترة ، في مرحلتها

المتميزتين مرحلة التتار ومرحلة العثمانيين ، فلا نجد شعرا ذا بال ، بله ان نجد القيم البطولية التي يعبر عنها الشعر او يبشر بها ، نجد قصائد ومجاميع ، وتطالعنا مختارات ودواوين ، ولكننا لانجد الا في النادر الشعر الذي يعبر عن روح الجماعة ويمثل تطلعها .. اننا نجد موسيقى الشعر ووزنه ولكننا لانحس حرارتـه ، ولا يتوهج في اعيننا القه .. كل مظاهر الشكل نلمحها ، ولكن ابز سمات الروح تختفي علينا .. فما الذي حجب عنا أصالة الانتاج الفني شعراكان او نثرا ؟ .. ما الذي رد هذه الزهرات الندية زهورا اصطناعية جافة جامدة لها شكل الزهر ، ولكن ليس فيها النسغ الروحي الذي فيه ؟! وبالتالي مـا الذي حجب القيم الكريمة في أعماق الروح العربية ؟ ..

ان تفسير ذلك لا يبدو عسيرا .. ان الروح العربية - كائنا مـن كان أولئك الذين مثلوها خلال هذه الفترات قبل سقوط بغداد - فعلت كل الذي استطاعت فعله .. صدعت بالدعوة . وحملت الرسالة وطلعت الى الناس بعد جاهليتهم بروح انسانية عريضة تجعل من الانسان المؤمن مركز الحياة في الارض ، وتسخـر له كل شيء في الآفاق .. ولكن هذه الروح العربية بالذي انتدبت له من امر هـذه الحضارة الانسانية العريضة التي ارادت ان تنشها ، لقيت كل العراقيـل ، فجاهدت وعملت ، وعلمت وعانت ، حتى اذا ادركها بعض الاعياء اثرا لهـذه السلسلة من الارواح الخبيثة التي وقعت في طريقها . روح العصبية فيها ، وروح التأثر عند الذين احجبوا الفارسية ، وروح التسلط عند الذين بعثوا التركية وروح الخراب مع هذا الاجتياح المغولي ، وروح التعصب والحقد في هذا الخطر الوافد من الغرب .. الروح العربية السمحة حين لقيت كل هذا وقفت عند الذي اشاعته واشعته ثم تركت لهذا الخليط المضطرب ان يفعل مايشاء ، فاذا العصبية المنحرفة تفسد المعنى القومي السليم ، واذا الفارسية تفسد الروح الاسلامية التي تقوم على المساواة ، واذا التركية تفسد روح الدولة ، ومع ذلك فقد ظلت الروح العربية تغالب ذلك كله بحضارتها وثقافتها ورسالتها ولغتها ، غير ان بدائية المغول وعصبية الصليبيين تستنزف في هذه الفترة الزمنية التي نتحدث عنها ما بقي في روحنا الاصيلة من قـوة .. فاذا نحن نزاح عن مكان القيادة ، ولا يكون للعروبة الصافية بمعناها الذي خـرجت به من الجزيرة موضع القيادة وانما تتناوب على القيادة هذه القوى المختلفة الهرمة والشابـة

ولكنها كلها لاتملك من الاصالة وعمق الروح وتعمق المثل الاعلى القدر الذي كان للاجيال الاولى ، ولذلك لا يكون لها في دفع هـذا الركب البشري في طريق الحضارة الصاعد الى دور ثنوي، وان كان توفر لبعضها من القوة مافرض به وجوده وشيد ملـكه ، واعطى الشرق معنى الهيبة في نظر أعدائه .

ومع خمود الروح الاصيلة خمد الشعر منذ سقطت بغداد .. كان صوت صفي الدين الحلي آخر الاصوات التي نفخت فيها هذه الروح مزاميرها ، وقـال صفي الدين شعره تتخلل ثناياه نفحات من الروح العربيـة المنتفضة .. حرض عـلى المغول وحذر منهم وكان ذوو السلطـان حوله يفقهون قوله لانهم كانوا بـقية من هذه السيوف العربية التي سكنت اغمادها بعد ، او بقية من السيوف الـتي طبعت على غرارها السيوف الايوبية ومن اتصل بها متاثرا خطاها .. ولذلك نجد كثيرا من شعر صفي الدين معارضات ، ونجد عنده مثل الفخر الذي قرأنـاه في العصور الاولى .. ولكننا ندرك بوضوح ، ونحن نقرؤه ، اننا لسنا امام الشاعر الـذي كنا نعرفه ، لسنا امام حسـان او المتنبي او ابي تمـام ، وان كان يلبس مسوح المتـنبي ويكتسي اثواب ابي تمام ، ويستعير اوزانهما وقوافيهما .. ان شعره صورة باهتة للشعر في معناه السليم .. ولقد خيل الي وانا اقرؤه كأنما انا احيا في الكهف الذي ترتسم على جداره ظلال الاشياء .. ولكني لا احيا مع الاشياء ذاتها .. ان صوته يرتفع احيانا كما يرتفع صوت الشعراء ولكنه لا يحمل دفقة قلوبهم ودفء عواطفهم وتلك هي التي تهب الاصوات عادة رنينها المتميز .

في الوسع ان نعتبر صفي الدين من هـذا النحو في المشرق خاتمـة الشعر الذى يرنو الى المثل العليا ، وترتسم عليه بعض سمات البطولات العربية .. فـاما الذين جاءوا بعده فقد لفتهم نزعة العزلة التي آثرتها الروح العربية لمكان القيادة .

ومن هنا يعسر علينا العسر كله ان نتلمس معـاني البطولة اية بطولـة ، في الادب في هذا العصر .. وكلما مضينا مبعدين فيه كلما شق علينا الامر قـد نعثر على البيت او المقطوعة او الشاعر في لمحة خاطفـة من لمحات الاشراق المفـاجيء ولكننا لا نلمح الثروة الشعرية الكاملة لان الروح التي كانت تمدها آثرت الانكماش

وكذلك ترون اننا نستطيع ان نلتمس البطولة كما كنا نلتمسها ـ في العصور الاولى ، عصور الدعوة والانطلاق والامويين والعباسيين ـ من الادب اعـني من

الشعر والنثر ، وكما سنلتمسها بعد في عصور النهضة . . وانا ان نفعل ذلك فلن نجد شيئا . . سنقرأ كثيرا من الدواوين ، ونعرض عديدا من الشعراء ، وتطالعنا القصيدة بعد القصيدة . . ولكنا لن نجد في كل القصائد التي نقرؤها والشعراء الذين نتعرف اليهم ، والدواوين التي نعرضها ما نحب ان نقع عليه . . لن ينبض شعر هؤلاء الناس نبضة الحياة العميقة، ولن يتحدث عن مواجد الارواح الذكية القلقة وتطلعاتها واهتماماتها البطولية . . ان الحرف الذي صيغ به هذا الشعر عربي لم يتنازل عن عربيته في ذلك وان كان افسح للحرف التركي والفارسي مجالا كبيرا . . ولكنه حين تمسك بالحرف العربي لم يقبس معه شعلة هذا الحرف ولا وهجه ولا مرتكزه النفسي العميق الذي يقوم عليه ، ولا آفاقه البعيدة التي يفتحها . . لكأن الحرف العربي في هذا الشعر أصابه شيء من عمى ، فاضحى وقد سدت عليه منافذ الوجود . . ولكأن الشعر الذي صيغ منه جاء كذلك مقفلا مصمتا ليست له المطلات الواسعة ، وتختبره وتصغي اليه فلا تسمع له لاوسوسة ولا جلجلة ولا تحس له لذع الوهج او نشوة الدفء .

وقد قرأت كثيرا من الشعر في هذه الفترة وفاء لشرف هذا الموقف فكان اكثر ما وجدت الغزل كانت كثرته بالغة وكان الى جانبه الاحاجي والتهنئة بالاعياد والختان ، والاخوانيات التي لا تتشرب المعاني الانسانية الشاملة ولا تنفتح لها . . ولم يكن في كل هذا الغزل الذي قرأته ماجنا او متعففا ما يصح ان نقف عنده . . وكنت اقرأ فأجد ظلالا باهتة من شعر المتقدمين . . بل لعل الذي وجدته لايعدو ان يكون أطلالا خربة للغزل الرائع الذي نعرفه في عصورنا الاولى والذي حاول ان يسبر غور النفس وان يتعمق دناها وان ينفذ الى سرائرها اذ يتحدث عن سرائر الهوى ومسارب الحب .

بل كان اكثر الذي قراته معادا مكرورا في كثير من التشويه . . كنت اشعر كانما امضي في ارض قاحلة ترتع فيها بعض النباتات الشائكة لها اسم النبات ولها شكله ولكن ليس لها منه خيره الذي ينفع انما هو شوكه الذي يؤذي واكثر من هذا ان هذا الغزل الجاف لم يحجب معاني البطولة ولم يستهلك قوى الجماعة الفنية واهتماماتها النفسية فحسب . . ولم يكن من سيطرته انه غطى اكثر جوانب النفس الانسانية في ذلك وانما كان له الى جانب هذا عمل آخر . . ذلك انه امتص معاني

البطولة وافسد شعاراتها - فيما نقول بلغة اليوم - إنه استخدم الفاظها ليشوه مفاهيمها، او ليعطي هذه المفاهيم مضمونا معاكسا يثبته في القلوب والاذهان كالذي نلمح اليوم من الاحتماء ببعض المفاهيم والطعن عليها في آن واحد، الاستتار وراءها وتمزيق اطرافها . . وكان من اثر ذلك ان القنا والرماح والسيوف والنصال وهي بعض مظاهر القوة وادوات البطولة لا تتبدى في هذا العصر في وصف الجيوش والمعارك وساحات الجهاد قدر ما تتبدى في وصف القدود والعيون والنظرات . . واي ترد ابعد من هذا ان لا تقع على السيف ، سواء في واقع الجماعة او في عملها الفني ، حيث يجب ان يكون من اعناق الطغاة او الظلمة وانما تقع عليه في هذا الرمز الذي يفسد طبيعته ويفسد طبيعة الغزل في آن واحد . . وحين كان العربي في مكانه الطبيعي من الحياة السليمة كان يذكر هذه الاشياء في نطاق الغزل ولكنه لا يترك لهذا الغزل ان يمسخ حقيقتها ويفسد طبيعتها ولا يتيح له ان يمتصها وان يشوهها وان ينسى ضمائر الناس جوهرها الاول . . وانما كان العربي يذكر ذلك فيتعرف هذا القرن الرائع النفسي ، العميق، بين بريق السيوف وبين بريق الثغر حين تكون الرماح تنهل منه . . وتكون مهمة الغزل لا ان يفسد طبيعة البطولات وانما يكون من طبيعته ان ينمي هذه البطولات لانه يصقلها، وان يكون خيال المحبوبة وجمالها هالة جديدة في هالات المعاني الانسانية العميقة تحتاط مثله الاعلى وتساعد على اجتلائه وصقله . . كان العربي الاول يقول ما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

اما الذي كان يقال في هذه الفترة فذلك مثل الذي يقوله شاعر اسمه يوسف المغربي (١) :

جعلوا الشعور على الخصور بنودا ... والراح ريقا والشقيق خدودا
جعلوا المصباح مباسما ثم الظلا ... م ضفائرا ثم الرماح قدودا
والورد خدا والغصون معاطفا ... والشمس فرقا والغزالة جيدا
ورأت غصون البان ان قدودهم ... فاقت فأضحت ركعا وسجودا

(١) ريحانة الالباء ٢٣٥

وكان من الحق ان لا اذكر لكم مثل هذا المثال حتى لا افسد عليكم نشوة الابيات الاولى .

ونحن في هذا لا نأخذ على هذا الشعر انصرافه الى الغزل . فليس ذلك من غرضنا في شيء ، ولا نريد ان نحمل الادب معنى معينا فما ذلك من طبيعتنا في شيء ؛ ولكننا نريد الى القول ان هذا الغزل فقد صلته بالنفس الانسانية ، فلم يعد هذا الحنين وهذا الشوق في مواكب الروح المتفتحة للجمال او للحق ، او للجنة ، بل انه باعد ما بينه وبين الجمال الحق ، والحق الخير ، والخير الجميل ، وما يقال عن الغزل يقال كذلك عن كل الفنون الشعرية الاخرى . اطلال ليس فيها رائحة اصحابها ، وظلال ممسوخة لا يرتسم من تموجاتها صورة نافذة ، ولا تدفع ايحاءاتها بالناس الى اعلى من المستوى الذي فيه يتمرغون .

وكذلك غابت ايها السادة معاني البطولة في العمل الفني من وجهين اثنين اولهما ان واقع الجماعة نفسه لم يكن من الغنى النفسي بحيث يستطيع أن يتمثل اعمالا فنية قيمة .. والآخر ان آمال الجماعة نفسها لم تكن من التفتح ومن الازدهار بحيث تشحذ الالهام وتصقل المشاعر فتتولد عنها هذا توق الى عمل بطولي ، او رمز اليه ، او تبشير به .

لن نقع على معاني البطولة اذن في الادب بمعناه الضيق الخاص ، اعني في الشعر والنثر .. ولكني قلت لكم في مطلع الحديث ان معاني البطولة في هذه الفترة تتمثل في المقاومة ، تتبدى في التابي .. تحاول ان تتلامح مع كلمة (لا) حيث يجب ان تقال « لا » .. فمن اين استقينا معاني البطوله هذه ؟ .. اين نقع عليها اذا لم نقع عليها في الشعر والنثر ؟ .

لنخرج ايها السادة من نطاق الادب بمعناه الضيق من حيث هو شعر ونثر ؟ فقد عجز الشعر والنثر عن ذلك لم يسعفه الواقع ولم تسعفه الاماني ، ولنلتمس بطولة هذه الفترة من تاريخنا في الادب بمعناه العام .. وما اسرع ماتقع عليها .. ماأسرع ماتبدو لاعيننا وتملا قلوبنا روعة في سيرة كثير من العلماء في ذلك الحين في اسلوب حياتهم من نحو وفي عملهم العلمي من نحو آخر .

والاتصال بحياة هؤلاء العلماء الـذين سكبوا نور عيونهم ليوقدوا به شعلة المعرفة ، وليحفظوا عليها القها ، والتعرف اليهم هؤلاء الذين حفظوا قيم الجماعة العليا

واحتفظوا بمثلها حية نابضة ليسلموها بعد ، لاجيال النهضة .. هو الذي يكشف لنا عن صور البطولة ففي سيرتهم تتمثل معانيها ، وما كانت حياتهم الا تجسيدا للمثل الاعلى الذي رسمت الحركة العربية مع الرسول الكريم ابعد دراه.

واذا كان الشعر تبدى لنا ، ونحن تنبش هذا التراث ، كالنبعة الجافة يشير مجراها الى ماضيها الثر على حين يلتهب الحصا فيها من ظمأ ، ويتحرق التراب من جوع .. فان النبع في الحق لم يجف وان كان كذلك بدا لنا .. إنه غاض هنا على ألسنة الشعراء والناثرين ، ولكنه انبجس هناك في سيرة العلماء والمصلحين .. إنه تخلى عن ثوبه الفني ليتبدى في ثوبه الواقعي في سلوك هؤلاء الذين سنشير اليهم في صرامة هذا السلوك وفي مواقفهم في أصالة هذه المواقف ونبلها ، وفي حوادث حياتهم في ارتفاع هذه الحوادث عن المستوى النازل الذي كانت تتردى فيه الحياة. وكيف يجف النبع ومن ورائه هذا الرصيد الفخم ، من ورائه يمده سبعة ابحر وسبعة قرون ، من الحركة والفكرة ومن الدعوة والجهد ، ومن التنمية والتنشئة ، ومن الثقافة والعلم ، ومن الحياة والغنى. إن وسع المغول ، مغول كل عصر ، أن يهدموا طاقا أو قصرا او جسرا ، ولكنهم لا يملكون ان يهدموا القدرة المستكنة على إبداع شيء مماثل. بل لعلهم يتيحون للذهن الانساني الحر ان يجدد بناءه وان يتخلص من بعض عيوبه. إنهم يستطيعون ان يحرقوا الكتب، ولكنهم لا يطفئون الاذهان . وقد تختل الذاكرة الفردية ، ولكن ذاكرة الجماعة لا يمكن ان تختل او تموت. والذين ازعجوا الفكر العربي عن مكانته، وتنزلوا منزلته إنما اتاحوا له فترة من استجمام يستطيع معها ان يجمع نفسه ، وان يرمم قواه لينطلق بعد انطلاقته الجديدة ، وان يبدأ حركة الحفاظ والمقاومة من هذين القطرين المتجاورين المتكاملين في كل مراحل التاريخ ، من الشام ومصر على السواء.

وحين ناخذ انفسنا بدراسة سيرة هؤلاء العلماء في هذه العصور تتمثل لنا مظاهر البطولة في ناحيتين اثنتين: اولاهما في العمل العلمي الذي التزموه والاخرى في الخلق العلمي الذي احتذوه.

ومن تجاور العلم والعمل ، الخلق والخلق كان نسيج البطولة التي وعاها هؤلاء العلماء .

١) اما عن العمل العلمي فما احسب ان الوقت يتسع لاحدثكم عنه ... حسبي ان اذكركم بهذه الافكار الشائعة التي تعرفونها من ان عمل العلماء في هذا العصر كان استحياء لهذا التراث الذي دمره التتار في تحريق بخارى وتغريق بغداد، او الذي انصرف عنه من جاء بعدهم.. كانت الموسوعات في كل جوانب المعرفة هي تجسيد هذا التراث، من جديد، صيانته، وتقريبه، والحيلولة بينه وبين ان يمتد اليه الضياع .. وبذل العلماء في مصر والشام وفي غير مصر والشام في هذا السبيل من الجهد ما يبعث على الاعجاب حقا. كان معنى الحفاظ في الحياة العلمية هو الذي يملأ اذهان هؤلاء الاعلام.. والحفاظ اول مراحل المقاومة؛ وكان لهذا الحفاظ معناه الحضاري العميق؛ فاقبلوا على هذا التراث يجمعونه ويدونونه وينشؤونه إنشاء جديدا في تصنيفه وتبويبه.

ولكنني لن اترك هذا الحديث الذي تعرفونه عن الحفاظ العلمي قبل ان اشير الى جانب هام منه يلفت النظر طيلة هذه الفترة من سقوط بغداد حتى عصر النهضة ... وذلك ان الحفاظ أولى صفاء اللغة اعظم اهتمامه .. والعجيب انه رغم كل الامواج الهادرة الطارئة على الحياة العربية؛ ورغم كل العناصر الدخيلة التي لم يقدر لها ان تعربت كما تعربت العناصر الغريبة في العصور الاولى.. فان عددا كبيرا من المؤلفات في الغريب والدخيل يعود الى هذه الفترة؛ وعددا كبيرا من المعاجم والمراجع اللغوية انما هو ابن هذه العصور.. لكانما استيقظ في اعماق الجماعة آنذاك ان الصفاء اللغوي هو اول معاني الوجود المتميز.. وان هذه اللغة وعت ثقافة الذهن البشري كله، انما هي احدى نقاط الانطلاق الرئيسية نحو شوط جديد في الطريق الانساني الرحب.. وان كل حركة مقاومة للضغط او استعلاء على الواقع السيء يجب ان يكون لها جذورها العميقة في روح الجماعة وما من شيء آخر يغذي هذه الروح ويثير عندها ابعد آمالها وارفع مثلها ويجمع حولها الاغراض والاهداف كاللغة.. يحمل كل حرف منها حيث وجد من كل كلمة شحنة ضخمة من فكر وعاطفة ومثل.

ولست لاعدد لكم هذه الكتب اللغوية ولا العناية التي بذلت فيها حرصا على الصفاء اللغوي ... ولا ماكان من اثرها البعيد في ربط حلقات هذه السلسلة من تاريخنا، بل ومن وجودنا.

٢) هذا عن العمل العلمي . اما عن الخلق والسلوك في حياة هؤلاء العلماء والآفاق الرفيعة التي كانوا يمتطونها الى غاياتهم فذلك الذي اريد ان اقف بكم عنده لانه هو الذي يمثل في صفاء الق الشمس ووضوحه استمرار تقاليد البطولة في تاريخنا الطويل ولن استطيع ان اقول كل الذي اريده ، انما احب ان اسمي لكم ثلاثة او اربعة من ابرز من عرفنا من رجالنا في هذه الفترة او قريبا منها العز ابن عبد السلام « ٥٧٧ - ٦٦٠ » والنووي « ٦٣١ - ٦٧٦ » وابن تيمية « ٦٦١ ٧٢٨ » وتلميذه بعده ابن القيم « ٦٩١ - ٧٥١ » وآخرون كثيرون .

والحق اننا حين نعرف حياة هؤلاء الاعلام يروعنا منهم في ضباب هذه الاحداث السود ، هذا الضباب الكثيف الواطيء الذي يكاد يلامس الارض ويغطي الطريق على السالكين - يروعنا منهم هذه الشخصية المتوثبة المتفجرة التي استطاعت بقوتها وصلابتها ان تعدي كل شيء حولها ، وان تحيل ضعفه الى قوة وتخاذله الى نصرة وتفرقه الى وحدة ؛ ومعاني الانسانية المنكسرة فيه الى مثل صورها السليمة الاولى .

ولم يكن هؤلاء الاعلام يستمدون ذلك من جاه مؤقت او سلطان زائف . . لم تكن لهم اصول عريقة ولم يحملوا على اكتافهم شجرة انساب . . وما احتموا قط بما يحتمي به الناس : ظل امير ، اونفوذ متسلط ،وانما نسخوا ظلال الامراء المبطلين وكشفوا زيف وجود السلطان الضال . . وقالوا على مسمع من الدنيا كلها : هذا لن يكون ؛ فلما لم يستجب لهم السلطان طوعا استجاب لهم كرها

قيمة هؤلاء الاعلام ايها السادة في هذا السلوك المتفرد الفذ انهم جسدوا اولا معاني البطولة التي اوشك ان ياتي عليها الزمن ، وان تدفنها الاحداث بايديها التي تقطر منها الدماء . . وانهم احيوا في نفوس العامة ؛ نفوس الجماهير ، من اقصى الارض الى اقصاها ايمانها العميق بان السيطرة ليست للرغبات الضالة ولا للاهواء المنحرفة ؛ وانما هي - هذه السيطرة الحكيمة العادلة - لله وحده . .

فاستردت هذه الجماهير ايمانها ؛ ولمعت لاعينها دائما من خلال هذا الايمان صور المستقبل المزدهر صورة الربيع الذي تبشر به الطيور الصغيرة من خلال الضباب والسحاب والمطر المتساقط .

وقيمة هؤلاء الاعلام انهم زرعوا الخوف في نفوس الظالمين .. وليس شيء يهدم الظلم مثل ان يداخله الخوف ..

وقيمتهم كذلك انهم صححوا الطريق للمجتمع الهائم كله آنذاك .. ادركوا بداية الانحراف منذ فقد الناس ثقتهم بعدالتهم ، فارتدوا بهم الى بداية الطريق عرفوهم انفسهم وعرفوهم ربهم ، وقالوا لهم هذه سنن الله، سنن الكون في الخلق فليس لكم بعدها ان تهابوا او تجزعوا .. فإذا هذا التحديد الرائع البسيط يؤتي ثمرته بعد حين في حركات الاصلاح التي تتالت بعد ذلك في اول عصور النهضة

وكذلك كان من قيمة هؤلاء انهم كانوا في سلوكهم تعبيرا حيا عن دعوتهم انهم لم يقولوا للناس قاتلوا ونحن هنا قاعدون ، وانما قاتلوا معهم ولم ينهوهم عن الاثم وهم غارقون في الاثم ولم يدفعوهم في حيث لم يندفعوا هم قبلهم ان سلوكهم كان كالشراب المصفى لا تلمح فيه قذى .. كان كصفاء العين القذاة الصغيرة تفسد عليها الرؤية الصحيحة وتبعث فيها الدموع وتحيلها الى عطالة ، لا ترى ولا يرى الناس منها الا الجفن الغليظ الاحمر .

من كل هذا ندرك كيف كان هؤلاء الاعلام يحملون معاني البطولة : بطولة الراي والفكر ، وبطولة الخلق والسلوك في هذه الفترة . وكيف حفظوا الشعلة المقدسة التي اوقدتها الجزيرة وارادت الظلمات ان تطفئها .. ان معاني البطولة وسمات المثل الاعلى انما بدت في هذه النماذج الفريدة من الناس .. وقد كنت اتمنى ان اسوق لكم بعض التفاصيل الاخرى من حياتهم ولكني ان جانبتها فلن اجانب الاشارة الى ناحية اصيلة اولاها هؤلاء الاعلام اكبر اهتمامهم وتلك هي حسن تمثلهم للعقيدة وحفاظهم على صفائها من كل زيغ طارىء أو شبهة دخيلة

وكما كان الصفاء اللغوي غاية هؤلاء العلماء في عملهم العلمي .. كذلك كان الصفاء في العقائد والمثل الاعلى في السلوك غاية هؤلاء العلماء في اتجاههم الخلقي هناك حاربوا الدخيل اللغوي وهنا حاربوا الباطل العقدي .. والسياج الذي اقاموه حماية للغة اقاموا مثله حماية للعقيدة .. والفوا هناك في الدخيل والاصيل والعربي والمعرب حتى يستوى للغة نقاؤها .. والفوا هنا في البدع والضلالات واسرار الباطنية حتى يستوى للعقيدة نقاؤها .. هناك حكموا على اللفظة الدخيلة والغريبة والضعيفة فاستبعدوها او افترضوا وجوب استبعادها من اذهانهم والسنتهم وهنا حكموا على الزيغ والانحراف والتلفيق واختلاف الباطن والظاهر وعرضوا روح الانسان صافية بسيطة حتى يكون سلوكه كذلك صافيا بسيطا .. وهناك

آمنوا بان اللغة خيط الاستمرار لانها تحمل الماضي كله لتتفتح عن المستقبل كله كذلك آمنوا هنا بان اللغة خيط الاستمرار لانها تحمل الماضي كله لتتفتح عن المستقبل كله ، كذلك آمنوا هنا بان العقيدة هي خط السير ، وهي العاصم لهذا الخط ان ينحرف ، فلا تتردى هذه الجماعة من جديد في حمأة الضعف ورذيلة الانحطاط .

وما اشد ما يتشابه الموقفان : في العمل العلمي وفي السلوك الخلقي في الحفاظ اللغوي المر وفي الحفاظ على الخلق الصلب الوعر وكيف لا يتشابهان ، اليسا نبعة واحدة عن المثل الاعلى الذي رفعه هؤلاء الاعلام ؟

لقد قلت من قبل ان المقاومة والحفاظ والتأبي هي صور البطولة في هذه الفترة البطولة في اتجاهها العلمي والسلوكي ولم نستطع ان نلتمس هذه الصور عند الشعراء وانما وجدناها عند العلماء فقد كان هؤلاءهم الذين منحوا البطولة وجودها في هذه القرون بين سقوط بغداد وبين النهضة كالواحات : تجدد عزم الراكب وترد اليه امله بعد ياس بل انهم في بعض اللحظات بدوا لي وانا اعد هذا البحث كما لو كانوا هذه الجزر النائة في هذا المحيط المظلم الذي يفصل بين دخول المغول بغداد ، وبين تفتح الذهن العربي والنفس العربية في القرن التاسع عشر . . كانت جزرا صغيرة ولكن العين لا تخطئها على سعة هذا الخضم الهائل لانها كانت تتحدى بوجودها المستقل المتميز معاني الطغيان في هذا الخضم الهائل كانت كأنما ترفع راسها في وجه الاعصار تفرح بالجزر ولكنها لا تخشى المد لانها حين ينحسر عنها تخرج دائمامهورة نقية ان وجود هذه الجزر الصغيرة فوق اليم الطامي هو الذي زيف وجود هذا اليم لانه مكن من اقامة الجسور فوقها لتنطلق عليها القافلة التي استيقظت لتدخل التاريخ مرة اخرى ان قيمة هذه الجزر قوتها من قوة الاسس التي ترتكز عليها وعمقها . . انها قد تكون صغيرة ضيقة ولكن كل ارض القاع مرتكزها . . انها كانت كالذروة التي تنبىء عن الكتلة الضخمة التي هي نهاية لها . . وقد تمثلت هذه النهاية في صفاء السلوك وفي صفاء المعتقد وفي صفاء اللغة واحسب ان هذه ثلاثتها يجب ان تكون مرتكزنا نحن الجديد .

ان غرض هذه الابحاث ليس بالغرض النظري انها ليست عرضا لصور البطولة من حيث هو عرض بمقدار ما هي محاولة لاستخلاص المثل الاعلى على فترات التاريخ العربي لا اقول لصياغة المثل الاعلى فما يصاغ هذا المثل ، وانما هو ينطلق كشعاع دافق ممتد بين يدي الجماعة في طريق سيرها ونحن انما نعمل ونسافر ونكتب لنطلق هذا المثل الاعلى بين يدي طريقنا الجديدة ، طريق الوحدة ايها السادة ، لعلنا فعلنا ذلك .

تحية المؤتمر

بقلم عبد القادر حسن
(المغرب)

سلام من المغرب العربي ... الى ندوة الفكر والادب
من الفذ فخر بني هاشم ... محرر مراكش الاصلب
الى سالم وذوي سالم ... وشعب الكويت العزيز الابي
الى اخوة النيل والرافديـ ... ـن والقدس والحرم الطيب
سلام وود ازفهما ... الى رافعي علم العرب
الى كل شهم يسير بنا ... الى العز والعدل في خبب
الى المنقذينا بارواحهم ... من العسف والشطط الاجنبي
ومن اسهموا بيراعهم ... لدى المدلهم من النوب
وكلكم علم مسهم ... وكلكم انجم الغيهب
فلا فقد الشرق امثالكم ... هداة الى المنهج الاطيب

* * *

اقمتم عكاظا فاحييتم ... به سنن السلف النجب
ونقبتم عن صناديدهم ... وآدابهم دارس الكتب
وسلطتم النور متقدا ... على قصص مدهش مطرب
مثال الفتوة عارمة ... سجل البطولة في يعرب
يعج يصور نجدتهم ... لدى كل هول ومصطخب
يفور بما لهم من ندى ... بلا ملق وبلا طلب
ثري بحرية مالها ... حدود سوى المجد والنسب
وبالاريحية ناصعة ... وبالادب الغض والحسب
خمائل ما مسها صانع ... ولم تتبهرج ولم تنخب
مناقب ما بزها مثل ... بشرقي الاراضى ولا مغرب
سل الاصبهاني والاصمعي ... وسل صاعدا وابا الطيب
وكم دارس غيرهم حافظ ... وكم باحث بعدهم معجب
وكم مثقف لآثارهم ... وداهية مشرق مغرب

وكم صادق النقد هادئه ... يشذب ما ظل لم يشذب
وصاعقة ماهر في بنـ ... ـاء صرح المآخذ والريب
فسلهم جميعا وسل بعدهم ... اساتذة الغرب في الاحقب
فهل كان الا رياضا نمت ... على العفو في مقفر مجدب
وهل كان الا بصيص هدى ... وقادح زند لكل ابي
وملهم حب ومكرمة ... وصون الذمار من الاذؤب
ترعرع ثم استوى باسقا ... فتوجه محكمات النبي
كواشف ما بعدها سدف ... ومعجزة الفن والادب
ابانت على الحق حتى سما ... واخنت على الزيغ حتى خبي
وخطت سبيل الكفاح المرير ... والصبر في الموقف الاصعب
واوحت لنا ان ايماننا ... هو السر في الفوز بالمأرب

❀ ❀ ❀

اساتذة الشرق حياكم ... مديم الرسالة في العرب
اقيموا لها هرما شامخا ... تحدى به اخطر الشهب
تكون السويداء اساله ... بكل وليد وكل ابي
وقنته الروح صامدة ... لكل العواصف والسحب
تفيض سناء محصنة ... من الزيغ والوهن الاجنبي
فليس سوى الروح ملتجأ ... من الخطر الكاشر المختبي
تقوي وتجمع اشتاتنا ... وتنشلنا اي مرتقب
وتجعل منا هداة لها ... وللحق بالمنطق الاصوب
فلم نؤت من قلة في الورى ... ولا منطق زائف محدب
ولا من فهاهة اقطابنا ... ولا وهن الساعد العربي
ولكنما الداء يكمن في ... ضمير كفور بها خرب
فردوا على الشرق ايمانه ... نقيا كما جاء في الكتب
وسيف الصراحة فلتحملوا ... ، ضد التملق والكذب
تروه قويا شديد المراس ... ان يدع في جلل يثب
وياخذ مثل اوائله ... مكان الطليعة في الموكب
فنحن محط الرجاء متى ... تزيغ المقادة بالمركب

البطولة في الرواية العربية الحديثة

بقلم سهيل ادريس
(لبنان)

اذا اردنا ان نبحث في روايتنا العربية الحديثة عن خصائص البطولة كما كان يصورها ادبنا العربي القديم فاننا سوف نفتقدها لا محالة، في معظم انتاجنا القصصي المعاصر .

والحق ان مفهوم البطولة قد تغير اليوم ، واتخذ معنى ومضمونا جديدين في اذهان المؤلفين الروائيين . فليست البطولة بعد تصويرا لاعمال الفروسية والشجاعة الخارقة ؛ وتمجيدا للاخلاق المثالية والمناقب الرفيعة والمزايا الاستثنائية التي تفرد بها عدد من الافراد اختصتهم الطبيعة بما لم تختص به سواهم من البشر فبرزوا وجوها رائعة عجيبة تثير الدهشة وتبعث على التقديس . اجل لقد صور ادبنا القديم كله البطل على انه فرد فائق يتجاوز الناس في صفاته ويسلك في مواجهة الاحداث مسلكا مثاليا ، ويأتي من الاعمال ما يعجز عنه سائر البشر ، ويتنزه عن كثير مما يميز الناس من نقص انساني ، او من ضعف بشري .

اما ادبنا الحديث ، وروايتنا المعاصرة بالذات ، فقد كفت عن تصوير هذه البطولات ، لا يمانها بانها بطولات استثنائية شاذة لا قيمة حقيقية لها في تطوير الانسانية او في اضافة كسب جديد لها . . ان الرواية العربية الحديثة قد انتقلت من ذلك الطور الى طور تصوير الانسان العادي ، الانسان الانسان، هذا الذي تكمن بطولته في ان يكون انسانا حقا ، لا انسانا فائقا .

فليس من مجال بعد للموضوعات التقليدية المتعلقة بالعواطف البطولية ، والوقائع الخارقة ونستطيع من هنا ان نقول ان انتاجنا الروائي الحديث قد امات البطولة بمفهومها التقليدي ، ليحيي بطولة اخرى هي بطولة الانسان الطبيعي الذي يعيش الحياة الطبيعية بكل ابعادها . وكم هو مدعو الى ان يواجه مواقف تبرز عندها بطولته الحقيقية التي حسبها انها تخلق له الصراع النفسي الداخلي . ان بطلنا الآن هو الذي يضطلع بمهمته ويتحمل مسؤوليته في الحياة ، مستبعدا

كل مثالية فارغة نافيا كل تجريد ميتافيزيقي ، مواجها وضعه بكل معطياته ، شاعرا بثقله على الارض مؤمنا في الوقت نفسه بان عليه ان يصارع ويناضل حتى لا يرديه هذا الثقل في الحطة والضعة .

والحق ان الروائي الحديث يجد نفسه الآن امام كائن شديد الغنى ، لكل نزعة من نزعاته قيمة ، ولا يمكن ان يطرح منه جانب ، ويؤخذ آخر . فالواقع اننا لا يمكن ان نعرف البطولة اذا لم نعرف من اي جبن هي منبثقة . . . ولهذا نرانا نعجب بالانسان الذي يظهر الخوف والتردد امام الخطر اكثر من اعجابنا بالانسان الذي يقتحم الخطر دون ما تراجع او خوف . فليس الخوف منافيا للشجاعة بالضرورة ، ولسنا نخشى الشر او القبح او الانانية لاننا نؤمن بانها يمكن ان تصبح خيرا وجمالا وحبا وايثارا . ان الانسان لا يولد نبيلا او وضيعا وانما هي الحياة التي تجعل من الناس ارستوقراطيين او بورجوازيين او من عامة الشعب والانسان هو الذي يخلق نفسه ويطورها ويرتفع بها او يذلها . انه كائن شديد التعقيد ، ولا يخلو عنصر من عناصره من القيمة ، ولهذا كانت خير الروايات ما يصور الكائن بكليته ، بمختلف عواطفه المتناقضة ، وذبذباته المختلفة . . . وان احدنا ليبتسم حين يقرأ انتاج اولئك الذين بدأوا كتابة القصة العربية منذ نصف قرن فيرى ان احدهم لم يكن يطيق ان يجعل من الانسان مصطرعا لارقى الافكار واحطها ، وانبل العواطف واذلها ، كان انسانهم مقدودا من معدن واحد . فهو اما ان يكون شريفا منذ البدء حتى النهاية ، او ساقطا منذ البدء حتى النهاية ولذلك كان الابطال في الماضي قليلين نادرين ، شاذين ، اما اليوم ، فكثيرون هم الابطال وقد يكون جميع الناس ابطالا ، لانه لا مجال بعد للمثالية ، ولان الواقعية هي حظ الناس جميعا ، وقدرهم .

لقد كان ادبنا الكلاسيكي يصور البشر على غير حقيقتهم اذ يتجاوز بهم اوضاعهم البشرية ويرفعهم الى رتبة المثال ، فينظر اليهم الناس من بعيد معجبين مشدوهين ، ويداخلهم الياس من ان يصبحوا مثلهم ابطالا ، اما اليوم ، فليس هناك بطل منعزل عن وضعه ، عن مجتمعه ، عن شعبه ، وليس هناك من عمل الا وله هديره الانساني ، وله صداه في موطنه ، ولن يستطيع هذا البطل ان يكسب حبنا واعجابنا الا اذا كان معدنه من معدننا ؛ وتعرض لمثل ما نتعرض له من ضعف

واقترف مثل ما نقترفه من اخطاء وآثام ، ورزح تحت ثقل افعاله ؛ ولسوف نحبه اشد الحب اذا رايناه بعد ذلك يحاول ان ينهض ؛ وان يتطهر ؛ وان يكفر .. لاننا ندرك بذلك انه يمثلنا حقا ويجسدنا صدقا ويشق امامنا طريقا ممكنا للتطهر والتفكير .

ومع ذلك ؛ فقد عرفت روايتنا الحديثة ، في فترة انبثاقها منذ نصف قرن تقريبا ، مثل هؤلاء الابطال المختارين من خارج الحياة الحقيقية على ايدي سليم البستاني وجميل المدور وفرح انطون وحافظ الدمنهوري وحتى المنفلوطي . فان معظم هؤلاء الابطال ذووقيم اخلاقية مصطنعة مزيفة فليس في اشخاص المنفلوطي فقير الا وهو شريف نبيل بطل وليس فيهم غني الا وهو منحط سافل دنيء وليس فيهم تقي الا وهو عظيم ، قدوة ...

وعلى ما كانت تهدف اليه الرواية التاريخية من تمجيد الماضي وحث على استعادة المجد فان اثارها الحديثة التي وضعها جرجي زيدان ومعروف الارناؤوط ومحمد فريد ابو حديد وكرم ملحم كرم وسواهم تكشف لنا عن ذلك المفهوم المغلوط للبطولة والبطل ، اذ ترفع الوجوه التاريخية من مصاف البشر لتخلق لهم منزلة خاصة تمتنع فيها عليهم النقائص البشرية ويبدون كائنات خارقة لا يجود الدهر بمثلها الا نادرا .

وبعد ، فان انسان روايتنا الحديثة ، وبطلها في آن واحد هو كائن يبحث عن ذاته الحقيقية عبر تجارب ومغامرات كثيرة ، يبدو فيها تائها قلقا غير مستقر يسافر طويلا في الماضي ويشطح الى المستقبل ، ويبلو كثيرا من النساء ويأثم ويخون ويتعثر ، ويحب الحب العاطفي والحب الشهواني ويخيب فيهما كليهما ، ولكنه يبدأ من جديد ، ويحاول مرة اخرى ... واذا آمن مرة بالقيم كفر بها مرات ، واذا داعبته الاماني والاوهام ، فلا تلبث الخيبات ان تدمي قلبه . فيكشف في اعماق نفسه يأسا ولوعة واسى ويستبد به قلق عميق يتخذه سبيلا للاجابة على اسئلة كثيرة تطرحها عليه الحياة التي عاشها . لماذا يعيش وكيف يجب أن يعيش واي امل ينتظره، واي مصير يترصده، وما هي المقاييس الاخلاقية التي يطبق عليها مسلكه ، وبم يؤمن وما عساه يرسم له من هدف ؟ ... اسئلة كثيرة لا تنتهي ، ولا ينبغي أن تنتهي حتى لاتقتل في نفسه هذا القلق الذي به يشعر انه انسان ذو قيمة ، لان عليه

ان يلتمس الجواب على هذه الاسئلة عبر حياته وتجاربه ، ولان هذه التجارب بالذات تحل محل الفلسفة الحياتية ، بل هي فلسفة حياته بعينها ، فاذا اتيح لهذا الانسان البطل ان يتغلب على جميع هذه العوائق التي تقف دون ان يهتدي الى نفسه ، انصرف الى العمل في ميادين الحياة وكلها ميادين شريفة نبيلة لانها ذات هدف مرسوم واضح ، وكان كل همه ان يكون فردا صالحا في بناء مجتمعه ووطنه ومن ثم الانسانية جمعاء . اما اذا تعثر في سيره ، وتغلبت عليه شرور الحياة ، قضى باقي عمره تائها يائسا يلتمس النهاية ، وخير له وللناس ان ينتهي ما دام قد استحال الى عنصر فاسد لا تستطيع الحياة ان تتابع سيرها المطمئن اذا لم يبتر .

ان هذا البطل المعذب الذي يواجه الوان العنف والضغط والذي تدفعه قسوة الحياة الى ان يتدرع باليأس والحذر وان يطرح الحنان والثقة ، يستحق كل عطفنا وكل حبنا لانه قريب من نفوسنا ، بل هو من القرب بحيث نعرف فيه انفسنا احيانا خيرا مما نعرفها في ذواتنا . وانما نحن نحبه ونتابع مغامراته لانه اتخذ له مبدأ نبيلا لا بد ان يوصله الى نتائج ايجابية يهتدي بها الى ذاته ، ويعرف قدره وقدره هذا المبدأ هو الصراع . »

أجل ، كانت البطولة الماضية ، كما تصورها الآثار الادبية ، هروبا من الحياة الى عالم الخيال واللامعقول والخارق ، اما اليوم فهي الاندماج بالحياة ، ومواجهة كل صعابها ، والتمرد على وقائعها . والثورة ضد قوانينها ، ومحاولة التغلب على مآسيها وفواجعها . وغالبا ما يواجه البطل مجتمعه وهو مبتوت الجذور ، معزول غريب ، فاذا شرع في الصراع ، فمن اجل ان يصل جذوره بجذور مجتمعه ، والا استحال عليه ان ينسجم وبيئته ، وبالتالي انقطع ما بينه وبين الناس حوله .

واذن ، فان عنوان بطل الرواية العربية الحديثة هو « الصراع » وليس في وسعنا طبعا ان نجعل هذا الصراع عنوان مطلق الانتاج الروائي ، وانما نعني افضل هذا الانتاج واعمقه تمثيلا . من اجل ذلك ، لن يكون في مكنتنا هنا ان نستعرض الا النماذج الكبرى في ادبنا الروائي ، مستقطبين فكرة الصراع حول ثلاثة موضوعات يمكن ان يندرج تحتها مختلف ممثلي البطولة بمفهومها الحديث .

والحق ان هذه الموضوعات الثلاثة انما فرضتها على ادبنا عامة ظروف الحياة التي عاش فيها الوطن العربي منذ اوائل القرن العشرين . فان قيام الاستعمار

الاجنبي في ارضنا قد خلق في الشعب هذا الصراع الوطني الذي مثله عـدد من الزعماء الوطنيين ، والذي تجسد في نماذج شعبية اتخذها الروائي ابطالا لقصته يمجدون الثورة ، ويحثون على التمرد لتحرير البلاد من ربقة هذا الاستعمار . ثم ان اتصال الشرق والغرب في هذا اللقاء المزدوج ، اما في اولهما او في الآخر، أثار ضمير الشرقي (والعربي فيما يخص هذا المجال) حول قيمة هـذا اللقاء ، فنشأ هذا الصراع بين الشرق المتفتح المستيقظ على نهضته ، وذلك الغرب المستعمر الذي يعجب ويخيف في آن واحد . وقد جسد هذا الصراع عدد من كبار روائيينا تجسيدا صادقا . ولم يكن للادباء ، بعد ذلك ، بد من ان يعيشوا وضع مجتمعهم المتخلف ومن ان يرصدوا محاولات الصراع العنيف الذي كان يقـوم بيـن فئات واجيال وتقاليد ، ومن هنا كان تصوير هذا الصراع الاجتماعي من اهم موضوعات الرواية العربية الحديثة .

ولسنا نقصد بهذا التقسيم ان نقيم حواجز بين الوان الصراع الثلاثة ، فهي قد تجتمع كلها في اثر واحد ، وقد لا يفي اثر واحد بموضوع واحد منها ، وانما هي مقتضيات البحث وملاحظتنا غلبة نزعة منها على نزعة قد دفعتنا الى هذا التوزيع

فاما الصراع الوطني ، فقد صوره عدد من روائيينا كان من اولهم القصاص العراقي محمود احمد السيد في روايته « جلال خالد » (١٩٢٨) وبطـل الصـراع شاب عراقي ينتمي الى ذلك الجيل المتحمس من المناضلين الذين خلقتهـم الثـورة العربية الكبرى ابان الحرب العالمية الاولى في مختلف الاقطار العربية . ففي عـام ١٩١٩ غادر « جلال » العراق الذي كان يحتله الانكليز ، وفي نيته ان يتجه الى الحجاز وطن الثورة العربية ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فقضى حينا من الزمن في الهند حيث صادق بعض الشبان الهنود الذين كانوا يعملون هم الآخرين مـن اجل استقلال بلادهم . وقد ربطته صداقة حميمة بصحفي هنـدي ثائر اتاح لـه فرصة توسيع آفاقه الفكرية والوقوف على القضايا الاجتماعية والسياسية . ومـا لبث جلال ان ادرك الظلم الاجتماعي الذي يعانيه الهنود ، فخرج مفهومه الوطني من اطاره الضيق الى مفهوم انساني واسع . وقد شهد يوما اشتباكا عنيفـا بيـن البوليس والمضربين من العمال ، فذكر انه انما غادر بلاده لانه لم يكن يحتمـل ان تحرم استقلالها ، وانه لم يشهد فيها يوما اي اضراب « لانه لم يكـن هناك

عمال وانما مع الاسف فلاحون فقراء جائعون ، ومع ذلك فهم مستسلمون» وقد اثر الصحفي الهندي وكان اشتراكيا متحمسا تاثيرا كبيرا في جلال الذي ادرك انه كان يؤمن بمفاهيم كثيرة مغلوطة لم تكن ضرورة عدم تحرر المراة العربية اقلها شانا ، وقد ظل يواصل تثقفه ويستمع الى المحاضرات العديدة التي كان يلقيها اساتذة معروفون حتى بلغه نبأ ملأه حماسة وسعادة . هو نبا ثورة القبائل العراقية في الشمال عام ١٩٢٠ على الانكليز ، وكان يحترق شوقا لكي يعود الى بلاده حيث يشارك في الثورة . ولكن نبأين اخمدا حماسته وهو في طريق عودته : اخفاق الثورة العراقية ، واحتلال الفرنسيين لسوريا ، واضطر الى الفرار ، ولكن الى عالم الكتب في هذه المرة ، فعكف على قراءة جميع الكتاب الاجتماعيين وتامل في حالة العرب المتاخرة ، فآمن بان تاخرهم مردود الى جهلهم والى الخلافات التي تقسمهم ، والى الراسماليين الذين يستغلونهم ، والى السياسيين الذين يخونونهم وسرعان ما شعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه بان يشن حربا لا هوادة فيها على جميع هذه الآفات .

ولاشك في ان هذا البطل يعكس نفسية جيل باكمله ، ويعطي المثل الرائع للبطل الايجابي الذي لا ينى عن الصراع ، والذي يؤمن باستكمال الوعي في مختلف الميادين ، وبان البطولة الحقة عاجزة اذا هي لم تستبصر بكل ابعاد الحياة ، ولو لا ضعف التقنية الروائية لكانت « جلال خالد » من ابرز رواياتنا الوطنية .

وهذا ما تداركته رواية القصاص اللبناني توفيق يوسف عواد « الرغيف » عام ١٩٣٩ وفيها يشترك شاب وفتاة بدور بطولة وطنية رائعة . اما الشاب سامي عاصم فينتمي الى تلك الطبقة المفكرة الواعية التي تلتمس في العمل القومي تبريرا لحياتها ولوضعها المعنوي ، عشية الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٩ . وقد كانت البلاد العربية تتجمع لتتحرر من النير العثماني ، وكانت السلطات تلاحق سامي ، فالتجأ الى كوخ صغير في الجبل كانت توافيه اليه حبيبته زينة وتدلي اليه باخبار الثورة . وكان سامي وهو في مخبئه ينتظر فرصة مناسبة تمكنه من العمل ، بعد ان اعدم الاتراك عددا من رفاقه . غير ان هذا الجمود ما لبث ان ثقل على ضميره فزين له ان وضعه لا يخلو من جبن ونذالة . ولعله شاء ان يعزي نفسه من ذلك

حين عمد الى قتل جندي تركي فر من الجيش . وقد ظل ينتظر حتى وشى به بعضهم فالقى الترك القبض عليه وساقوه الى السجن بانتظار محاكمته . واما زينة فانها في اثناء ذلك لم ترفض دعوة الحاكم التركي الذي كان يرغب فيها منذ زمن ، فاذا هي تدلف الى قصره ، وتظل ساعات الى جانبه تتامله وهو يشرب ويثمل ، حتى اذا اقبل عليها يود اغتصابها انتزعت مسدسه وقتلته به . وفي هذه الاثناء اعلنت الثورة العربية في الحجاز ضد الاتراك واصابت المجاعة البلاد العربية التي جعلت تسعى وراء خبزها مثل سعيها وراء استقلالها . وما لبثت زينة ان انضمت الى فرقة من الثائرين الذين كانوا يقومون باعمال التخريب في لبنان ، كالوف الشبان في سائر البلاد العربية . وبلغها ان سامي لم يمت ، خلافا لما كان قد اعلنه الاتراك وانما التحق بعد فراره من السجن بالمركز الرئيسي لحركة الثوار التي اصبح الآن احد قوادها . وقد ظل يقاتل ويقود الحملات ضد الترك حتى سقط في ميدان المعركة ، ولكن النصر كان قد كتب للمناضلين العرب . ولم تستطع زينة بعد ان بلغها النبأ ان تمسك دمعة حين رات الثوار العرب يدخلون منتصرين الى قريتها الصغيرة . ان سامي لم يكن الا احد هؤلاء الابطال الذين اضطلعوا بمهمتهم وقاموا بنصيبهم في صراع العرب من اجل استقلالهم ورغيف خبزهم .

على ان رواياتنا الحديثة لم تقتصر ، في مفهومها للبطولة الوطنية ، على النماذج الفردية التي قد تعبر تعبيرا ضيقا عن الشواغل القومية . فقد خلق بعض الروائيين ابطالا منفتحين يوحون بالتجسد في مئات الناس بل ألوفهم وملايينهم بما يعبرون عنه من ايمان وعمل ونزوع . وان هذه البطولة الجماعية لانصع دليل على تغير مفهوم البطولة التي كانت مقصورة على افراد فائقين ليس بينهم وبين الآخرين قاسم مشترك . وهي تعبير واضح عن ان البطولة لا تكتسب معناها الحقيقي الا اذا كانت تحمل في ثناياها بذور العدوى ، وتدفع الى المشاركة والاسهام . فان البطل ليس بطلا حقا الا بما هو مثال يتكرر وانموذج يتعدد ، حتى يصبح الشعب الذي ينتمي اليه بطلا كله .

ولعل خير رواية تجسد هذا المفهوم للبطولة هي « عودة الروح » ١٩٣٣ لتوفيق الحكيم ، ويدور موضوعها حول بعث مصر الجديدة ، الحدث الرئيسي في حياة المصريين بالعصر الحديث ، كفاحهم من اجل الحرية ؛ انها قصة الاسرة

المصرية كلها التي ترمز الى شعب يستيقظ لحياة جديدة يريدها كريمة مجيدة كالسابق ، ويمثل هذه الارادة خمسة اقرباء نراهم في اول الرواية ، مقبوضا عليهم في مستشفى عسكري يصرون على ان يقضوا فيه فترة المرض جنبا الى جنب فاذا تابعنا القراءة الفيناهم يحبون فتاة واحدة يحاول كل منهم أن يكسبها اليه ويستأثر بها ولكنها تفلت منهم جميعا وتشعرهم باخفاقهم في الحب فاذا بهم يقعون في اليأس ويتباعدون .. ولا يردهم الى الالفة الا غضبة الشعب المصري وثورته ضد ابعاد زعيمه سعد زغلول ، فاذا هم يشاركون في الثورة جميعا مسوقين بدافع واحد ، متضامنين متماسكين ، مستعيدين صداقتهم . لقد شعر اعضاء الاسرة بعد ان وحد الالم بينهم ، انهم مستعدون للتضحية والتطهر حين ظهر سعد زغلول الذي جسد كل آمالهم . وهكذا تمت المعجزة الجماعية البطولية . لقد ثار الشعب كله على المحتل ؛ جميع طلاب المدارس كلها وجميع اعضاء الطبقات كلها في الامة كانوا يتحدثون بلسان واحد . كل منهم كان يحسب انه هو الذي بدأ الحركة ، لانهم جميعا انتفضوا في وقت واحد ، مدفوعين بروحهم التي عادت اليهم فكلهم يشعرون بان الايمان يوحد بينهم ، ويدركون ويحسون بغرائزهم ان اجدادهم كانوا يكونون كل ميت من امواتهم بقولهم « عندما يصبح الزمن ابدية سنراك من جديد لانك ذاهب الى حيث الكل في واحد » .

والواقع ان « محسن » - البطل الرئيسي للرواية - هو نموذج لجميع تلك الشبيبة الحائرة القلقة التي تتلمس طريقها في الحياة عبر قيودها الكثيرة . انه ينتمي الى اسرة بورجوازية لا تملك حس القيم الصحيحة . اما هو فكان يملك روحا تبغض الثروة والترف ، فهناك « ارواح تعذبهم الثروة » وان محسن ليحس الضيق والالم من كونه غنيا ، فكم من مرة صرخ وبكى وكافح ضد ذويه لانه لم يكن يريد ان يرتدي ثيابا جديدة ... وكم من ابتهالات ودموع بالا يرسلوا اليه السيارة تنتظره على باب المدرسة . انه لم يكن يرجو الا شيئا واحدا ان يكون كهؤلاء الفقراء من رفاقه ولم يكن شيء ليثير خجله مثل تمييزه عن رفاقه بالثياب او المال او دلالة الثروة وحين اضطر يوما الى ان يستقل سيارة ذويه بحضور رفاقه حسب انه يسمع صدى حكمهم عليه : « لقد خرج محسن من عصبتنا الى الابد » وحين عاد الى بيت ذويه في الريف لقضاء العطلة ، خيل اليه ان شيئا غامضا يحفر

بينه وبينهم هوة ، وانه مهما يفعل، فسيظل يشعر تجاههم بضيق شديد لا سبيل الى تفسيره ، ولم يكن يريد الا ان يثور على نوع الحياة الذي يسوقونه .

وهكذا يصبح محسن ؛ الى كونه بطلا قوميا بطل حرية اجتماعية تهزأ ببورجوازية مترفة تمنع الثروة فيها الرجل من ان يبحث عن معنى حياته . انه يمثل الرجل الثائر على مجتمعه في وقت يبلغ صراع الطبقات فيه ذروته . واما « عبده » عمه المحبوب فثائر هو الآخر على الظلم الاجتماعي . وهو يثور على فكرة المراتب التي كانت تسيطر على جميع الاسر البورجوازية في مصر .ولقد رأى اخته تعطي الخادم طعاما لم يكن احد راغبا فيه ؛ فصاح بها غاضبا : اليس مبروك رجلا مثلنا ؟ اليس هو منا ؟ متى كنا نعامله بخلاف ذلك ؟ ومتى كنا في البيت على درجات ؟ ثم اننا نراه يهاجم بكل جرأة المشعوذين والسحرة الذين كانت اخته تتوجه اليهم والذين كانوا يريدون ان يهدموا البيت ببخورهم وطلاسمهم ؟

ان محسنا يظل رمزا للبطل العصري الحقيقي .لقد اصيب هو واعمامه بخيبة في حبهم ففروا الى ميدان العمل الوطني الذي طهر ارواحهم وشفاهم وهذا الفرار هو احدى الخصائص المميزة للبطل الحديث . فلقد رأيناهم ذات لحظة غارقين في الاسى واليأس ولكنهم امتلأوا بعد ايام بالحماسة واستخفهم النقاش في الوطنية .

وقد كان محسن اشدهم تغيرا فان قلبه الذي حطمته خيبة الحب عاد يخفق من جديد في سبيل وطنه ومن اجل هذا الوطن مضى ينفق مذخور حبه الذي كان يكنه للفتاة . ثم ان الآلام التى عاناها جعلته اقوى على التضحية واشد احساسا بالبذل فلم يعد يعنيه شيء من مسرات الحب او من النجاح في الامتحان انه لا يفكر بعد الا بقضية وطنه هكذا يصبح لسان حال تلك الشبيبة كلها التي تنشد الاستقلال

ثم اننا نجد مثالا آخر للصراع الجماعي في قصة طويلة للدكتور يوسف ادريس بعنوان « سرد البائع » صدرت اخيرا في مجموعة قصصية بعنوان « حادثة شرف »

وقد كان من الطبيعي ان يستوحي ادباؤنا التقاء الشرق والغرب في هذه الفترة من نهضة العرب ، ومن استعمار الغرب لهم ، فنشأ لون من الادب الروائي يصور هذا الصراع الذي ينزغ من التقاء هذين العاملين المختلفين ، ويتحول هذا الصراع الخارجي الى صراع داخلي في نفوس ابطال عاشوا في الغرب فترة من

الزمن ، ثم عادوا الى اوطانهم فأتيح لهم ان يوازنوا ويقارنوا ، ولكنهم جميعا يعودون اشد ايمانا بشرقهم وبمصيرهم المشرق فيه ، فكانهم بذلك يرهصون بهذه اليقظة العظيمة التي بدأت انوارها تبهر العيون .

وقد جسد ميخائيل نعيمة لونا من هذا الصراع في قصة طويلة له بعنوان « ساعة الكوكو » ضمنها مجموعته المشهورة « كان ما كان » . وفيها نرى فلاحا قرويا ، يدعى خطار ، يتهيأ للزواج حين يعود الى القرية مهاجرا من اميركا يجذب بماله ووجاهته انظار القرويين جميعا ، وكان هذا المهاجر يحمل ساعة كوكو تثير اعجاب الجميع بما فيهم خطيبة خطار نفسها . ثم يظهر فجأة ان هذه الخطيبة تختفي مع المهاجر . ويبلغ من يأس خطار وشدة حزنه واغراء هذه الحضارة الغربية له ان يقرر هو ايضا الهجرة الى اميركا . وقد تمكن هناك من ان يكسب في اثناء الحرب ثروة كبيرة ، وان يتزوج بامرأة اميركيه تطمع بماله فحسب اذ كانت تحتقره وتنعى عليه الضعف ، وكانت تسخر خصوصا بساعة كوكو اشتراها مما اقتصده اول الامر من ارباحه وكان شديد الحرص عليها . وذات يوم التقى الزوجان ، وكان برفقتهما شاب اميركي وفي الظاهر مدير اعمال الزوجة وفي الواقع عشيقها بخطيبة خطار السابقة التي ظهر ان امرها انتهى الى ان تصبح خادمة لتعيل زوجها بعد ان فقد ثروته وافضى الى الفقر المدقع . وفي اليوم التالي اقبلت تزور خطار في بيته ، فاستقبلتها الزوجة الاميركية ابشع استقبال وخرجت مع عشيقها غاضبة . وفي تلك الساعة تدق ساعة الكوكو ، كما لو انها تذكر خطار بحياته الماضية وسعادته الفائتة . وبعد حين يعود خطار الى قريته بمفرده ، فيستعيد حب القرويين وتقديرهم .

وواضح هنا اننا ازاء موضوع الارض الخيرة تجاه الحضارة الصناعية العاتقة الهدامة . والواقع ان ساعة الكوكو رمز حضارة مادية تنجح بان تصرف امراة عن رفيق حياتها الحقيقي وان تثني خطار عن مهمته النبيلة كفلاح . ففي هذا المحيط من المدنية المادية الذي يبرز فيه وجه امراة خائنة يفقد خطار كل سعادته بالرغم من انه كسب ثروة عظيمة وهولا يلبث طويلا حتى يشعر بانهذه الحضارة برج شاهق تمشي دواليبه العظيمة على صدره « فيفر من جديد ليعود الى تلك الارض الامينة التي يستطيع ان يغفى فوقها باطمئنان .

ولا بد لنا قبل ان ننتقل الى القسم الاخير من بحثنا من ان نشير الى رواية « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ؛ ففيها ايضا تصوير للون آخر من الصراع هو الصراع الفكري ؛ بين الشرق والغرب الذي لا يتسع المجال لتحليله .

اما ابطالنا الاجتماعيون الثائرون ، فيستغرقون معظم انتاجنا الروائي والقصصي وهذا دليل واضح على وعي ادبائنا لاهمية المجتمع في بناء حياة سليمة وعلى محاولتهم معالجة مشكلاتنا وقضايانا الاجتماعية قبل كل شيء . ولعل من الغريب ان نلاحظ ان كثيرا من هؤلاء الابطال يخرجون من صراعهم مع المجتمع مخفقين اويائسين مما يشير الى قوة الصراع والى ان الآفات التي تتملك مجتمعنا من القوة بحيث لا يمكن التغلب عليها بسهولة .

ولسنا نعرف اديبا عربيا في عصرنا الحديث حملت آثاره من آثار الثورة والتمرد ما حملته آثار جبران خليل جبران وسواء اكانت قصته روايته او اقصوصة فانها تنبض بهذه الروح . ففي « عرائس المروج » و« الارواح المتمردة » و« العواصف » « والاجنحة المتكسرة » سلسلة من الثورات . ثورة العاطفة والحرية والروح الطماحة ؛ وثورة على رجال الدين والاقطاعيين والراسماليين والتقاليد العمياء . ومن اليسير ان نجد في اقصوصة « وردة الهاني » ثورة عارمة على تزويج الفتيات من رجال لا يعرفهم ؛ فتتعرض تلك الزوجات من اثر ذلك للاخفاق كما نجد في « مرتا البانيه » ثورة على ظلم الرجل الوحشي الذي يغرر بالفتيات ثم يتركهن نهبا للالم والرذيلة . ولئن كان الفن القصصي منهارا في اقصوصة «مضجع العروس» فان التمرد الجبراني يبلغ فيها ذروته ؛ اذ يثور على النفاق الاجتماعي والتقاليد الفاسدة ويبارك الحب المخلص ويدعو الى فتح الابواب له بل يجعله شريعة من شرائع الخالق . ثم ان بطليه « يوحنا المجنون » و« خليل الكافر » يثوران على رجال الدين الذين يتسلطون على خيرات الناس ويسلبونهم اموالهم مستغلين عاطفتهم الدينية وايمانهم الساذج .

وتكتسب معظم آثار طه حسين قيمة اجتماعية كبيرة لان جميع ابطاله ثائرون على شاكلته فكتاب « الايام » يحمل ثورة اجتماعية كاملة : انه يهاجم بطريقة رمزية آفات مجتمع مريض يزخر بالاكاذيب والجهل ونفاق رجال الدين . وحين يروي المؤلف قصص اولئك الشبان الذين سقطوا في امتحاناتهم فظنوا ان هناك

سوء طالع يلاحقهم انما يريد ان يسخر من معتقداتهم واوهامهم الساذجة التي يؤمن بها كثير من هؤلاء الشرقيين الذين يطمحون الى المعالي ، فيما هم يلتزمون الكسل والجمود . ومظهر آخر من مظاهر هذه الثورة يكمن في تلك السهام التي كان يجعل التعليم الازهري هدفا لها . فيهزأ بالمشايخ ويسخر بآرائهم ويناقشهم فيصبح عدوا للجميع ويتهم بالضلال والالحاد ؛ و « أديب » هو الآخر ثائر ، وقد ادت به ثورته الى هدمه ، لانها فقدت قدرها اللازم. ثورته ضد التقاليد وضد وسطه وضد انغلاق ذويه الذين كانوا يعتقدون ان اجتياز البحر يعرض لخطر مدنية فاسدة . وضد زواجه الذي كان مع ذلك سعيدا هانئا . وترمز « آمنة » في « دعاء الكروان » الى ثورة المؤلف نفسه ، انها تقطع صلتها بالتقاليد اذ ترفض مقاسمة ذويها حياتهم ، وتبحث هي نفسها عن حريتها التي تكلف غاليا دائما ، وتختار طريقها فتذكرنا بابطال سارتر ، وكانت من قبل تتساءل : « الثورة ؟ العصيان ؟ ما ارهب هذه القوة التي تملك القلوب ، وتعدم الشخصية والارادة ، هذه القوة التي يسمونها احترام الاشياء الموضوعة . » ولكنها لا تتردد في ان تسلك طريقها التي اختارت . « ان علي واجبا ان اسير مستقيمة امامي يوما فيوما نحو الشرق ، نحو هدف اعرفه وانشده بغموض » . وتدفعها هذه الثورة فتصل ، فاذا هي تحس انها مخلوقة جديدة ، تختلف عن تلك الخادم التي كانت من قبل ، ثم انها تخلق شخصية المهندس الجديدة فيتحول من رجل اناني الى انسان يزخر بالحب والتفهم

وليس المجال بمتسع الآن لاستعراض جميع الآثار الروائية التي تمثل هذا الصراع فنكتفي بالاشارة الى ابطال اجتماعيين واعين في قصص محمود كامل وذو النون ايوب وعبد الملك نوري وعبد السلام العجيلي ويوسف الشاروني وامين يوسف غراب وامين يوسف غراب وسواهم من غربت عن الذهن اسماؤهم

على ان أوعى الابطال الاجتماعيين واشدهم تحسسا لواقع الحياة هم ابطال نجيب محفوظ ، الروائي العربي الاول ، غير مدافع . ولا شك في ان ابطاله يجسدون خير تجسيد المفهوم الجديد للبطولة الذي بدانا به بحثنا . وليس هذا المفهوم نظرية تجريدية ، وانما هو انعكاس للحياة مما يمثله ابطال رواية الثلاثة « بين القصرين » و « قصر الشوق » و « السكرية » . فان قسوة الاحداث وعنفها ووحشيتها احيانا هي التي تشعرنا بثقل الواقع وواقعيته ، وتكشف لنا اتساع الرقعة

التي يقوم فيها الصراع بين الانسان وبين عالم كبير مفترس . والحق ان المغامرة البطولية التي تنطوي عليها حياة البطل الرئيسي في الرواية ، كمال ، انما تبدو لنا حية وحقيقية لانها تكاد تسحق فيه الانسان ، ولكنه مع ذلك لا يدعها تسحقه ، بل يثور من جديد ليذكرنا ابدا بسيزيف . والحق ان في الرواية مجموعة من الابطال يمثل كل منهم نموذجا حيا لكائنات اجتماعية تعيش حياتها ويتطور خط سيرها تطورا طبيعيا لا اقتسار فيه ولا تصنع . ولكن معنى البطولة الحقيقية التي ينبغي الا تنفصل عن الاخلاق، مهما كان الوضع الاجتماعي ، انما يتجلى في كمال الذي اتخذ له جذورا بطولية في أخيه فهمي ، وامتدادات بطولية في ابن اخته احمد شوكت وهو في ابعاده كلها يمثل الانسان العربي الجديد في القرن العشرين هذا الانسان الذي ينبغي عليه ان يواجه سلسلة طويلة من الصراع في حياته السياسية والاجتماعية والثقافية ، والذي هو مدعو ابدا لان ينطوي على داخله ليستمد من وعيه قوة مستمرة على مواصلة الثورة بعد ان يندمج في المجتمع اندماجا طبيعيا يبعده عن التفكير بالفرار والهرب كحل لمشاكله المستعصية الكثيرة . ان فهمي - الجذر القومي لكمال ، اذا صح التعبير - هو بطل من ابطال الوثبة التي اطلعت سعد زغلول ، هؤلاء الابطال الذين يمثلون الطليعة لكل انتفاضة ويتحلون بمجموعة من القيم والمثل الصافية تدمغ نفوسهم بطابع الاندفاع المخلص الذي يدفع الى التضحية بالذات في حركة بطولية نادرة . حتى اذا قتل فهمي في احدى مظاهرات الطلاب التي قامت ابتهاجا برجوع سعد زغلول من المنفى ، ولدت هذه الشعلة من جديد في نفس كمال ، وان ظلت كامنة تحت الرماد وتبدى كمال في مطلع شبابه فتى متحمسا لكل شيء ، يحب فتاة بورجوازية حبا يملك عليه نفسه ويضطره احيانا الى الذل والنفاق . ولكن حبه لسعد زغلول لا يقل عن ذلك قوة . وتمضي الايام فتنمو معها معتقداته ، ويظل حبه يرفده بطاقة عظيمة من الحماسة ، فيتكامل بعده الذهني ، ويبدأ يؤمن بالكلمة وقوتها ، حتى اذا اخفق في حبه وتزوجت الفتاة من شاب ينتمي الى طبقتها كانت هذه اول صدمة عنيفة ترج نفسه وتضعه وجها لوجه امام ظلم اجتماعي قاهر ، هو تفاوت الطبقات ، ويبدأ ايمانه بالقيم يتزعزع بعد قلقه وضياعه ، وتسقط احلامه ومثاليته فيقع في ثورة الحادية جارفة وتطبق عليه قسوة الواقع فيفر الى الفكر والادب والفلسفة ،

ولكن هيهات ان ترد له نفسه وان تزيل من حياته حس المأساة والفاجعة الذي طغى عليه ، لا سيما بعدان انهارت مثله السياسية بعد وفاة سعد تحت ضغط الرجعية السياسية وملأه الانحلال الخلقي يأسا واشعره بان فساد المجتمع اقوى من نضاله وصراعه العنيف .. وساق حينا من الزمن في تيه وقلق وضياع ، وكان يعي ذلك فيقول بسخرية وألم « انا الحائر الى الابد » ولكنه مع ذلك لم يستسلم بل اخذ يؤمن رويدا رويدا بانه « ربما كان من الخطا ان نبحث في هذه الدنيا عن معنى بينا ان مهمتنا الاولى ان نخلق هذا المعنى » ثم يتبلور موقفه من مجتمعه ، فيرى ان « غاية ما يعزي به نفسه هو ان المعركة لم تنته ولن تنتهي ولو لم يبق من عمره الا ثلاثة ايام . وهكذا ينتصب كمال رمزا للصراع الدائم الذي يتابعه بعد ابن اخته احمد شوكت .

والواقع ان كمال يجسد كل هذا الجيل الجديد من المثقفين الذين يقبلون على الدنيا بروح ملأى بالعزم والاصرار وحس الصراع ، ثم يصابون بخيبات متتابعة من مجتمعهم المريض الذي يحيل صراعهم الى قوة سلبية لا تحفظ لهم ثقتهم بانفسهم وان بوسعنا نحن الذين نعيش الثورات في مجتمعنا العربي ، ان نشعر بخفقات قلب كمال حين نجد ثورتنا تجهض على ايدي بعض الساسة الذين يريدون ان يقودوا وهم ليسوا على مستوى الثورات ، ومع ذلك فمن ذا الذي يرتضي منا ان يخون وعيه وضميره وايمانه بتبعيته في المجتمع العربي الجديد فيرمي السلاح ويستسلم ؟ ان هذا السلاح سيظل مرفوعا ، وستظل اليد التي ترفعه متماسكة مناضلة ولو اعترتها رعشات الالم والخوف ، فانما يسرى في عروقها نسغ الصراع البطولي الى الابد .

خطرات

بقلم محمد المهدي مجذوب
(السودان)

لولا أساي بدات بالغزل   كالعهد من شعرائنا الاول
سقيا لهم زالوا وما برحت   اصداؤهم تنداح في الازل
وربوعهم في البيد ظامئة   غدرانها بمحاجر الابل
حملت على الاقتاب طاوية   فجر الهدى ومنارة السبل
لولا الاسى لفعلت ما فعلوا   واذبت اماقي على طلل
وارن شيطاني بقافية   عربية الاوضاح والحلل
هيهات فالاعجام قد عذلوا   فيها وملت لذلك العذل
قالوا : وصدقنا مقالتهم   ما كحل عينيها من الكحل
بدوية لم تعش لحاضرة   وتدل بالاسمال والعطل

❀ ❀ ❀

اشكو ولا اشكو من الزمن   أشكو عذاب الروح في بدني
لولا الاسى يقضي على الفطن   اوقفت كالاعراب في الدمن
فيها علالة انفس وجدت   سلوى على الارزاء والمحن
يا ويح قلبي ما له اثر   يعتاده فيقر في وطن

❀ ❀ ❀

وبعثت بين انامل قلما   أيبسته بجديدة فنما
أعميته فرأى واخرجني   نسعى ونوقظ حولنا ظلما
ايصيح (يوحنا) بموعظة   بين الذئاب لترحم البهما
يا ويحه بدم تعمده   (سالوم) تقطر فتنة ودما

يا ليته قد آثر البكما ونجا مع البيداء معتصما
والحق مسحور وصاحبه يلقى شعاع السيف مبتسما
هاتوا لنا عيسى بشارته لا تحمل الصلبان والالما

⊛⊛⊛

لولا الاسى دع ذا وهات لنا شعراً ينسى اللهف والحزنا
اوقد لنا الاكواب هامدة وسنى وعر بضوئها حسنا
في محفل الشعراء ناده‌هم شوقي واصفى حافظ ودنا
نيلان في النيلين قد لقيا عربا تلوا اشعارهم لسنا
والشعر اقدار ندق بها صدر العدى ونمنع الوطنا
وهو الغبين على زهادته ملك الحياة ولون الزمنا

⊛⊛⊛

هذا بشير البعث للعرب من بعد ان تاهوا مع الحقب
يتسمعون الى الحداء سرى من شاعر متفائل طرب
او ما زها الاعراب ما وجدوا في سمرة السودان من نسب
آوت لنا الفصحى معربة عن دارها مهتوكة الحجب
تنجو بقرآن وتحجبه في صدرها عن كل منتهب
وهبته للخلوات (١) موقدة نيرانها يقران في الكتب
او تسمعون لها وقد ملات شطآننا ببيانها العجب

⊛⊛⊛

لو راءني الاعشى لناده‌ني هزجا يدق بصنجه الصخب
وعددت في الغربان افصحهم والى البيان الحر منتسبي

محمد المهدي مجذوب

---

(١) الخلوات جمع خلوة وهي مكان يقرأ فيه الصبية القرآن

البطولة في الشعر الحديث

بقلم عبد الرزاق البصير
(الكويت)

نعتقد ان للايمان بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهـداف اكبر الاثر في خلق البطولات في بعض الافراد وليس من شك ان هناك عوامل اخرى في خلق البطولات ليس هنا محل ذكرها . فالبطل لا يكون جريء الجنان مستعدا للتضحية الا اذا كان مؤمنا بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهداف .

ولعلنا لسنا في حاجة الى القول بان هذا الايمان لا يتحقق للفرد اوللجماعة الا اذا ادركت قيمة الحياة ، وهذا لا يكون الا اذا حصل الشعب على نوع من الثقافة . من اجل هذا رأينا مطلع القرن التاسع عشر يكـاد يكون خاليـا من البطولات وهو بالتالي خـال من شعر البطولة لان الشعر صـورة لعصر الشاعر والسبب في ذلـك كله يرجع الى ان الاتراك الذين سيطروا على البـلاد العربية باسم الدين قد اشاعوا بين الناس الجهل واجتهدوا في فرض اللغة التركيـة الامر الذي كاد ان يشغل العرب عن تاريخهم وآدابهم ولغتهم فانصرف الشعراء الى التافه من الاغراض كالتهنئة بالمولد او التهنئة بالزواج او بسلامة وصول احد الحكـام الى غير ذلك من الاغراض التافهة مما ادى بالشعراء الى التلاعب بالالفاظ فشـاع بين الناس ذلك الشعر اللفظي الذي لا يصور شيئا غير الحياة الفارغة التي لا غنـاء فيها فانتشرت الخرافات بين الناس مما ادى الى وقف العقول عن التفكير الجدي وظل الناس على هذا الحال حتى جاء نابليون بحملـته المعروفة الى الشرق وكان قد جاء معه جماعة من المستشرقين اخذوا في بث الثقافة بين الناس فاحـدث هذا تاثيرا قد لا يكون قويا ولكنه كان منبها بعض الشيء ثم زاد الاتصال بـالغرب عن طريق البعثات والرحلات فاطلع العرب على علوم لم يعرفوها من قبـل وادركوا فيما ادركوا نظم الحكم واساليب السياسة وعرفوا ان للفرد حرية يستخدمهـا في ابداء الرأي والحصول على الحقوق التي تكفل له المسـاواة وتضمن العدالة . كما عرفوا ان الشعوب لها رأيها الذي يؤخذ به في شتى الشؤون .

لقد عرف العرب بكل هذا في علوم الغرب وانظمته وترجموا منه ما استطاعوا الى لغتهم العربية فاطلع عليه الجيل بعد الجيل في كل مكان ووعوا فيما وعوا ان لهم حقوقا يجب المطالبة بها فسلكوا اليها شتى السبل ولم تسلم طرائقهم من العقبات التي حالت بينهم وبين ما يريدون . وهنا كانت البداية في الكفاح بل البداية في ظهور الابطال على مسرح الحياة العربية .

ونعتقد ان هناك ناحية اخرى لها الاثر البالغ في تطوير الاحساس بالعزة والانتفاض على المظالم ، تلك هي طبع التراث العربي القديم . ويقيننا ان الحرية التي تطلع اليها العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي صورتها بعض الاشعار كانت نتيجة لذلك التطور الذى بلغه العرب بسبب العاملين الذين اشرنا اليهما سابقا . ومنذ ذلك الحين بدأت معان جديدة تظهر للناس كغناء الفرد في الجماعة وحرية الرأي فاصبحت الاشعار التي تحتوي على هذه الاغراض هي الاشعار التي تهز القلوب وتأخذ بالالباب وتضيء للشعب العربي آفاق الحق بل آفاق الحياة .

واول باب طرقه الشعراء في هذه الناحية هو تذكير العرب بما كان لهم من ماض مجيد يدل على حضارة عريقة فمن ذلك قول المرحوم ابراهيم اليازجي:

وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في اجفن العليا مقام

لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا اخذ الانام

ونحن اولو المآثر من قديم ... وان جحدت مآثرنا اللئام

فقد علم العراق لنا قديما ... ايادى ليس تنكرها الشآم

وفي ارض الحجاز لنا فيوض ... يسيل لها الى اليمن انسجام

وهذا الفخر الذي نراه فى تلك الابيات لا يرجع سببه الى عنصرية الشاعر وانما يرجع الى التحدي الكبير الذي كان يقوم به الاتراك ضد العرب فقد كان الاتراك يحتقرون العرب اشد الاحتقار الامر الذي دفع بالشعراء الى الافتخار بالماضي المجيد .

ثم لجأ الشعراء الى اتجاه جديد ارادوا به استنهاض الهمم والثورة على الحكام والمستبدين ومن ذلك قول اليازجي :

دع مجلس الغيد الاوانس — وهوى لواحظها النواعس
اين النعيم لمن يبيت على — بساط الذل جالس
ولمن أزمته بكف عدا — ه يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه — ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى اوطانه — خربا كالطلال دوارس
فالترك قوم لا يفوز — لديهم الا المشاكس
او لستم العرب الكرا — م ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم — نارا تروع كل قابس

ولقد كانت الاسباب الممهدة لظهور المعاني السابقة في الشعر العربي ممهدة ايضا لظهور ابطال الرأي والمصلحين في كثير من البلاد العربية كقاسم امين ومحمد عبده وعبد الرحمان الكواكبي وجمال الدين الافغاني . فقد حفزت مواقفهم البطولية نفوس الشعراء فصوروها في رائع من القول . من ذلك قول شوقي في رثاء قاسم امين محرر المراة :

شغلتك في دنياك اربعة — والمرء من دنياه في شغل
حق تناصره ومفخرة — تمشي اليها غير منتحل
وحقائق للعلم تشدها — ما للحكيم بهن من قبل
وفضيلة اعيت سواك فلم — تمدد اليه يداً ولم تصل

وقد افصح الشاعر محمد مهدي الجواهري في قصيدته الرائية بذكرى السيد جمال الدين الافغاني :

وتختلف الدروب وسالكوها — وغايتها دنوا وابتعادا
ويختلف البناة ورب بان — بنى من فكرة صرحا وشادا

وهكذا كانت بطولة الرأي شعلة اضاءت لرجال السياسة سبيل النضال فوقفوا يجاهرون بآرائهم بوجه المستعمرين ويدفعون الشعوب الى المطالبة بحقوقهم ... وكان الشعر مرآة انعكست عليها هذه البطولات السياسية ووجد فيها القوم تصويرا لآمالهم فتغنوا بها في كفاحهم ..

ومن اولئك الزعماء مصطفى كامل ومحمد فريد ويوسف العظمة ...

من ذلك قول شوقي في رثاء مصطفى كامل مبينا اثره في جمع الشعب على كلمة واحدة :

قم تر القوم كتلة	مثل ملمومة الصخر
جددوا الفة الهوى	والاخاء الذي شطر
ليس للخلف بينهم	اولاسبابه اثر
الفتهم روائح	غاديات من الغير

وما كاد هؤلاء الزعماء يرفعون راية الجهاد حتى ثار الشعب العربي في كل مكان فاقلق الدخلاء ولم يجدهم بعد ذلك الوعيد اوالفتك بالثائرين ، وكان ذلك كله مؤذنا بنيل الحرية والتخلص من الاستعمار .

وجاء الشعر العربي بعد ذلك مصورا لاحداث جسام قامت في البلاد العربية في بسالة شعبية رائعة ، هي تلك الثورات التي عرفتها مصر والعراق والشام ، ومن ذلك قول محمد الشريقي من قصيدة نظمها في سجنه بدمشق سنة ١٩١٦ :

لله شبان البلاد وشيبها	باسم البلاد على الجذوع تعلق
يتقدمون الى الردى بتبسم	لا يرهبون الموت وهو محقق
تقموا علينا ان نحب بلادنا	والحب في شرع الاله مصدق

وبهذه الثورات الشعبية ، التقت البلاد العربية في مجابهة المستعمرين ووقفت صفا واحدا تدافع عن حقوقها وتطالب باستقلالها .

ولقد سقط في هذه الثورات عدد من الابطال الشهداء كان لمصرعهم رنة أسى في الشعر ، واذكاء للنقمة على المستعمرين المستبدين .

ومن ذلك قول الزهاوي يرثي شهداء الشباب العربي في الشام وقداظهروا عند تقديمهم للمشانق جرأة وبسالة ليس لهما نظير :

على كل عود صاحب وخليل	وفي كل بيت رنة وعويل

وفيها يقول :

دنوا فرقوها واحدا بعد واحد	وقالوا وجيزا ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذر	ومستعجل كيلا يقال كسول

الى ان يقول :

لعمرك ليس الامر ذنبا اصابه	قصاص ولكن يعرب ومغول

ولم يكن تصوير الشعر للفدائية شيئا طارئا على حياتنا الادبية فقد عرفت هذه الحياة الوانا منها ايام الفتح الاسلامي ، ولقاء الفرنجة ، ولكن هذه التضحية بالنفس في سبيل المبدأ قد خبت في عهود الظلام والاستسلام ثم عادت من جديد الى حياتنا العربية في قوة بالغة وجاء شعرنا الحديث بصوره المبدعة مصورا هذه الفدائية في سبيل الوطن العربي في كثير من الجهات . تلك الفدائية التي اشترك فيها الرجل والمرأة على السواء ومن ذلك يقول الزميل الشاعر سليمان العيسي :

اين مني عينان ، خلف جدار السجن ، مكحولتان بالكبرياء
وجبين والف نجمة صبح لالات فوق جرحه الوضاء
وفم .. تعجز الحروق وتعيا فيه عن محو بسمة زهراء
بسمة .. لخصت بها شرف التاريخ صديقة من الصحراء
يلعق الوحش جرحها ، فتغض الطرف كبرا في صامت من اباء
وهي مهذولة ، اتبلغ يوما مثل هذا نذالة الاحياء
اين مني جميلة .. تزأر الساحات من صمتها بالف حداء

اما الصفة الواضحة التي لم يسبق لها مثيل على ما نعتقد في تاريخ البطولة ولم يحدثنا عنها الشعر في اي عهد من العهود فبطولة الشعوب ، وهي بحق تعد آية هذا العصر فلم يعد امر البطولة مقصورا على القادة والحكام وانما اصبحت الشعوب بعد شعورها بنفسها وايمانها بقدرتها هي التي تجالد وتقاتل وتصد ايدي المعتدي محتملة من دمها ومالها وعتادها عبء الجهاد . وهذا هو شعرنا الحديث يتحدث عن البطولة الشعبية في الجزائر وبور سعيد فيحسن الوصف ، ويكشف عن معدن العروبة الاصيل ، يكشف عن الجرأة والفداء والتصميم تلك الصفات التي اظهرتهامساوىء الاستعمار البغيض ومهد لها ارتفاع المستوى الثقافي بين الشعوب .

كقول الاستاذ محيي الدين فارس :

ايه يا سارق الشعوب تقدم ساحة الموت ، واللقاء تقدم
ههنا .. ههنا حساب عسير ولقاء مر وشعب تجهم
وعناق مع المدافع حتى الفجر .. حتى اراك شلوا محطم
ما لعينيك ، راغتا تتحاشاني وفي ثغرك الحديث تلعثم
أنت مهما حشدت اسطولك الراعد .. ملء البحار .. لا اتهدم

الى ان يقول :

وغدا بور سعيد تسكنك الافراح .. يبنيك كل قلب .. ويـلثم
لن تموتي .. لن تهزمي .. لن تكوني غير فجر على العروبة حوم

ومن الجديد في شعر البطولة ما نراه في شعرنا الحديث من وصف للبطولات الاجنبية فهذا شاعر يمجد جـان دارك ، وهذا يصف مواقف ستـالنجراد وذاك يتحدث عن انتصار الروس على الاتراك وهكـذا ... ويقيننا ان هـذا اللون من الشعر جاء وليد الاتصال السريع في العصر الحديث . وارتفاع الشاعر في خياله الى مرتبة من الانسانية تجعله يمجد المواقـف الخالدة انى كانت ، وقد يدفع اليها في بعض الاحيان اتفاق الاهداف السياسيـة او العداوة الناجمة من استعمار دولـة من الدول للشعوب الضعيفة .

ونعتقد ان شعراءنا العرب يهدفون من وراء هـذا كله الى ضرب الامثلـة لاستحثاث الهمم ودفع الشباب الى التضحية في سبيل البلاد آخذين من هذه الاشعار مثلا عليا يحتذونها في جهادهم وهذا هو الشاعر عمر ابو ريشه يتحدث عن بطولة جان دارك :

نـادت بفيـالقها البتـول وهو سـاعدها المهنـد
وعدت الى حرم الجهـاد السمح بـالعزم الموطـد
فتلاحم الجيشان فاندلـع اللـظى والهول ارعـد
هذا يفر وذا يكر وذا يكـب وذاك يصعد

ومن واجبنا ونحن نتـناول شعر البطولات في العصر الحـديث ان نشير في شيء من الايجاز الى لون من الوان الشعر ذكر اغلب النقدة ان شعرنا القـديم والحديث خلو منه وذكرت قلة منهم ان ادبنا فقير فيه - ان صح هذا التعبير - ذلك هو شعر الملاحم التي تصف المعارك وتتناول البطولات التاريخية في افاضة واستقصاء وبطريقة موضوعيـة ليس فيها لشعور الشـاعر وذاتيته ظهور فيه . قال النقـدة ومؤرخو الادب ذلك لانهم لم يجدوا فيمـا وصل الينا من تراث قصائـد طوالا تصف الاحداث التاريخية وتعدد اعمال الابطال كتلك التي رويت عن اليونـان والرومان في العهود القديمة ، نعم لقـد دافع بعض الادباء عن هذا الاتهام قائـلا

ان الحروب التي دارت بين العرب قبل الاسلام لا بد وان يكون الشعراء قد نظموا في وصفها الملاحم ولكنها ضاعت فيما ضاع من تراث ولم تع حوافظ الرواة الا القليل من ابياتها . وقد عدهؤلاء بعضا من شعر الفرزدق والاخطل وجرير وشعر ابى فراس وابي الطيب المتنبي من شعر الملاحم وقالوا ان الـذين انكروا على الشعر العربي اشتماله على هـذا اللون من الموضوعات لم يعرفوا تماما معنى الملاحم الشعرية .

وسواء اصح هذا القول ام لم يصح - فاننا لا نجد في شعرنا العربى اتجاهـا واضحا الى تسجيل الاحداث التاريخية البطولية - وقدكان اعتذار المعتـذرين عن ذلك في كثير من الاحيان انما هو اعتماد الشعر العربي على القافية والتزامها من اول القصيدة حتى نهايتها مما حد من طولها وجعل الشاعر يتصيد الكلمـات التي تصلح لها تصيدا بعد ان تبلغ القصيدة عشرات الابيات . فكيف يستطيع اذن ان ينظم الملحمة في آلاف من الابيـات وهو مقيد بقافية واحدة . وقالوا كذلـك في الاعتذار ان الملاحم نوع من التاريخ الادبي وهو لايتهيأ الا بعد ان يصيب الشاعر قدرا من الثقافة يمكنه من ذلك . ولم يكن ذلك في استطـاعته قبل الاسـلام . وبعد فما رأي شعرائنا في الوقت الحاضر ومادة التاريخ البطولي متوافرة واحداث البطولات في عهدنا الحاضر تغرى بالتسجيل ومعين الثقافة فياض . على ان القافية التي قيل فيها انها حدت من الـطول لم تعد امرا يعتمد عليه في الاعتذار بعـد ان عدد شعراء الانـدلس منذ عـهد بعيد القوافي في الموشحـات ونحوها . وخـرج المجددون في زماننا هـذا على قيود القوافي فعددوها في القصيـدة التي لا تتجـاوز عشرين بيتا ؟

انا لا انكر ان عددا من شعراء العصر الحديث قد حاولوا نظم الملحمـة وها هو ذا الشاعر احمد محرم والشاعر سليمان العيسى ومن قبلهما الشاعر حافظ ابراهيم ينظمون في هذا اللون من الشعر فيجيدون . ولكننا لا نقنع بمثل العمرية ونحوها ولا نجد غناء فيما كتبه الشعراء في هذا الباب .

ان تاريخنا القديم والحديث غنى بالبطولات ونود ان يخلدها الشعراء في صور رائعة من البيان تهز القلوب وتعيد ذكريات النضال وتدفع الجيل بعد الجيل

الى التغني بها فتزيدهم حماسة ، وتمكن لهم من المجد الذي يستاهلون وقد يكون من حقي كعربي ان اتوجه الى المؤتمرين الادباء طالبا منهم التوصية بعقد المسابقات في موضوعات خاصة من البطولات العربية ينظمها الشعراء في قصائد طوال تكون موضوعا للدراسة في مدارسنا الثانوية وغيرها بسائر البلاد العربية .

ومن الظواهر الواضحة في ادبنا الحديث تلك الاناشيد الحماسية التي تدعو الى الجهاد وتذكر بالبطولات ، تنشدها الجماعات بل ينشدها الشعب باسره ، وقد اتجه الشعراء الى نظمها في عصرنا هذا ليهيئوا الجيل تهيئة قومية تذكره دائما بوطنه وتذكي في النفوس روح الحماسة حتى يتكتل الشعب في جهاده وليس بعيدا عن الاذهان تلك الاناشيد التي يرددها شعب الجزائر في نضاله والاناشيد التي رددها الشعب العربي من المحيط الى الخليج ، وكان لها اكبر الاثر في اذكاء روح النضال في المجاهدين ببور سعيد .

لهذا اقول وانا في هذا المؤتمر الكريم ان من واجب الادباء ان يوصوا باختيار نشيد قومي عربي يصبح شعارنا جميعا في المناسبات المختلفة على ان يكون مصورا لاهدافنا معبرا عن امانينا ومفصحا عن بطولاتنا ، وان هذا النشيد سيكون بمثابة ايذان بسعينا الحثيث نحو الوحدة الشاملة وهي آتية لا ريب فيها ان شاء الله

تعليق الاستاذ الفاضل بن عاشور

على محاضرتي سهيل ادريس وعبد الرزاق البصير

بالدرس الحكيم والعرض الدقيق اللذين امتازت بهما المحاضرتان القيمتان لمظهر البطولة في الشعر ومظهرها في الرواية في الادب العربي الحديث قد اتضحت جهة من جهات التلاقي بين المحاضرتين وهي ان العامل الاصلي في تكوين روح الادب الحديث واعطاء الاغراض والطرائق والاساليب ما اختصت به من المميزات التي تكون من مجموعها ما تقومت به ماهية هذا الادب في القرنين الماضي والحاضر انما يرجع مؤثره الاول الى حقيقة تاريخية هامة هي اصطدام الشرق بالغرب ٠

وهذا امر مسلم لا جدال فيه فاذا كانت الاداب صورا للمجتمعات فان الذي قضى بكل ما حدث من تطور اجتماعي وسياسي في حياة الامة العربية من اول القرن التاسع عشر انما يتمثل فيما حدث بينها وبين الغرب

ولكن الصورة التي تكيف بها هذا الاصطدام هي التي ينبغي التدقيق في ضبطها والحيطة في استجلائها حتى يتبين ما كان لتلك الصورة من تأثير خاص على الشعور الاجتماعي عند الامة العربية تاثيرا اختلف بسببه مظهر البطولة عما كان عليه في العصور السابقة فاختلف ما يصوره الادب الحديث من صورها عما صوره الادب في العصور قبله

فان الاصطدام بين العرب والغرب اذا نظرنا اليه بصفة عامة تبين لنا انه لم يكن امرا طارئا حدث في القرن التاسع عشر بل كان حاصلا مسترسلا باطراد منذ التقت قوات الفتح العربي بقوات السلطنة البيزنطية في يوم اليرموك ثم استمرت مظاهره متوالية متجددة في عصر الفتوح وعصر الصليبيات المشرقية منها والمغربية في البطولات التي صورها ادب الفتوح والتي صورتها مدائح ابي تمام وابي الطيب ومفاخر ابي فراس والتي صورها الشعر العربي في الاندلس والمغرب ٠

ولكن اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية ، وما كان للبطولات مع تلك الظروف المختلفة من تفاعل هو الذي قضى بان تظهر البطولة في كل دور من ادوار الادب وكل لون من الوانه مكيفة بصورة تختلف عما عداها باختلاف ما تتفاعل معه من البيئات

فاصطدام العرب بالغرب في القرن التاسع عشر لم يكن الاحلقة متصلة بالحلقات التي تتابعت قبل من سلسلة اصطدام العالم العربي مع الغرب تعين البحث عما تكيفت به تلك الحلقة من صور خاصة ليتبين ما كان لها من التاثير في صبغ الادب الحديث بالالوان التي اختص بها

وليس من الخفي بعد هذا ان اصطدامات العرب مع الغرب لم يقترن بها الشعور بالمغلوبية المطلقة والخيبة المحدقة الا في اواخر القرن الثامن عشر

فقد كان الشعب العربي في العصور الماضية كلما نزلت به كارثة من اجل صراعه مع الغرب وجد لها في حياة العالم الاسلامي الذي هو جزء منه عزاء ووجد قريبا او بعيدا مظهرا من مظاهر العزة الاسلامية ينيط به امله

اما في القرن التاسع عشر فان العالم العربي حين استيقظ بتوالي المصائب وتعاقب الارزاء قد تلفت حواليه فلم يجد جهة اسلامية تلوح منها بسمة غراء او تنبعث منها بارقة امل فعشش الياس في النفوس ثم باض وفرخ حتى ساد على المجتمع الشعور بالخيبة المريرة وانعقدت فيه عقدة الشعور بالنقص

وجاءت الغارة الفرنسية الاولى على بلاد العرب في صدر القرن التاسع عشر غارة نابوليون فكانت عدوانا كالذي عرف العرب من الافرنج طيلة عصور تاريخهم ولكن الغارة اقترنت في هذه المرة بمظاهر من التقدم الفكري والصناعي لاروبا بهرت الانظار وايقظت المدارك الا ان عند هؤلاء المغيرين من اسباب النصر وعوامل التفوق امورا من الادبيات والماديات ليست عند العرب فادركوا بالضرورة ان الذي اصبحوا يجدونه من غلبة الاروبيين في كل ميدان وسبقهم في كل مجال انما هو منوط بتلك الاسباب التي انفردوا بها وانه ما دامت ديار العرب خلوا من تلك الادوات والاسباب فلا امل لهم في اللحاق باعدائهم فضلا عن التغلب عليهم

فكان هذا الشعور الجديد تبدلا عميقا في النفسية العربية مبناه شدة الالم من صدمة اوروبا وقوة الحقد عليها والحسرة على فوات الفرص لمنافستها

وعلى هذا ينبغي ان يفسر تاثير الحملة الفرنسية في بعث النهضة العربية وبه ارجو ان يحرر كلام الاستاذ عبد الرزاق البصير في ارجاع امر الانتباه العربي الى حملة نابليون فان نابليون لم يات بلاد العرب الا عدوا كاشحا مثل الويز التاسع وشارل الخامس والعلماء الذين جاؤوا معه لم يكونوا الا بعضا من اركان حربه لاعانته على تحقيق حلمه في الاستيلاء على طريق الهند بما يقوم به علماء الاثار والمشرقيات والمهندسون وعلماء الطبيعة من بحوث انسانية ومادية

وكذلك ابتدا شعور الامة العربية من اول القرن التاسع عشر يتحرك في سبيل الاخذ بسبب النهضة الفكرية والصناعية حماية نفسه من الخطر الماحق الذي جاء يتهدده من الغرب

وحين دب في الامة هذا الميل وبدا الافراد يسعون لارضائه احس كل فرد بعلة نفسية مستحكمة فيه هي علة الفتور على العمل بحيث يستطيع ان يود ولا يستطيع ان يريد وما ذلك الا نتيجة الركود الذي كان مخيما على الوطن العربي وما اقترن به من تفكك اجتماعي وانحلال خلقي زيادة على ما تاصل في النفوس بسبب التاخر الفكري من الاخلاد الى الالف والعكوف على العادة وان كان العقل والشرع يقضيان بفسادهما

فكان شعور الامة بهذا الضعف المشاع بين افرادها عاملا على تطلعها الى بروز قوة خارقة عزيزة المنال تستطيع ان تحقق ما احس الكل بافتقارهم اليه ولكنهم عجزوا عن تحقيقه • ومن هنا برزت بطولة الافراد الذين تفاعل ساوكهم النادر مع ذلك التطلع العام اذ امتازوا بالهمم المترامية الى انجاز ما خارت دونه عزائم الناس •

فظهرت البطولات الاولى التي سجلها الادب الحديث وهي بطولات عابرة كان مظهرها القيام بالاعمال التنظيمية التي اقبل عليها افراد من حاكمين رمقتهم الاعين من اجلها بالاكبار مثل السلطان محمود العثماني ومحمد علي والي مصر

ولكن هذه البطولات سرعان ما تلاشت لما تبين ان التنظيمات التي اقبل عليها

هؤلاء لم تكن مجدية شيئا بما افصحت عنه الاحداث الاليمة في وقعة (نورين) ثم في تجدد الغارة الفرنسية على البلاد العربية باحتلال الجزائر وهنالك تبينت الانظار ان وراء التنظيمات والاستعدادات العسكرية التي اقتبس العرب منها عن اوروبا دعامتين قويتين تستند اليهما هما دعامة العلم الصحيح ودعامة الحكم السليم وان الشرق يفترق عن اوروبا افتراقا واضحا في هذين الامرين وهنا تقدم سير اليقظة العربية خطوة جديدة ادرك بها ان الطريق السوي نحو الغاية المنشودة انما هو بث العلم واصلاح الحكم

ونشأت من ذلك اولا فكرة الاصلاح الديني. ثانيا. فكرة مقاومة الحكم الفردي المطلق فكان التفاعل مع التطلع الاول حاصلا من طرف الحركات التي ظهرت تعمل على تطهير الدين من البدع مثل الحركة الوهابية في الحجاز وحركة السلطان سليمان العلوي في المغرب الاقصى والحركة السنوسية في ليبيا

وكان التفاعل مع التطلع الثاني حاصلا من طرف رجال السياسة الذين برهنوا على سمو شعورهم الاجتماعي وحرصهم على درء الفساد عن اجهزة الحكم واقدموا في ذلك على مخالفة شهوات الملوك مثل الوزير خير الدين التونسي وعالي باشا الصدر العثماني ثم مدحت باشا وغيرهم

وبين هاتين البطولتين بطولة الرأي وبطولة العمل اختلف النظر وتفاوت التقدير فكانت البطولة العملية المتجهة الى الاصلاح السياسي أتم تفاعلا مع التطلع الشعبي من بطولة الراي المتجهة الى الاصلاح الديني نظرا الى ان شدة الحذر من الاصلاح الديني وما قام في وجهه من انكار وقصور اكثر المدارك عن تقدير المبادي الاصلاحية قد جعل صور بطولة العمل اوضح في الشعر من صور بطولة الراي ولكن محاولات المصلحين الذين برزوا بالبطولة العملية قد آلت الى الاخفاق بسبب ان عدم الاقتناع بفكرة الاصلاح الدينى لم يزل حجر عثار في طريقهم فكلما حاولوا تغيير امر اضطروا الى اقناع الناس بان ذلك التغيير لا ينافي الدين فوجدوا في ذلك جدلا حادا حبطت به مساعيهم وقد وقع ذلك للسيد جمال الدين الافغاني في محاولاته الاولى اصلاح فساد الحكم في ايران وفي تركيا وفي مصر كما وقع لخير الدين في محاولاته بتونس وبالقسطنطينية

وبذلك تلاقت امال الحركتين وتظافرت جهودهما على جعل ايقاظ الفكر وتجديد روح الدين اساسا لكل عمل اصلاحي فتوحد بذلك مظهر البطولة الا ان تقدير المظهر البطولي قد اختلف باختلاف الاقطار العربية على نسبة ما كان لتلك المجهود من حظ الاتصال بالحياة العملية السياسية في اقطار والعزلة عنها في اقطار اخرى

ففي تونس كان اسناد الحركة الى قوة العلم الديني وسمو المنزلة الشعريه عند الشيخ محمود قبادو مع اعتقاده برجل العمل الايجابي الوزير خير الدين معينا على قوة تفاعل اصلاحات خير الدين مع النفسية الشعبية وخلود بطولته في ادب الطريقة التي تاثرت بقبادو وظهر من اعلامها في الشعر والنثر الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد بيرم والشيخ محمد السنوسي بما ابقى خير الدين في الادب العربي بتونس بطلا من الخالدين ثم درج الادب على تلك الطريقة في تخليد بطولة البشير صفر من الناحيتين كما خلدت منهما قبل بطولة خير الدين

وفي مصر كانت العوامل التي قضت باخفاق الثورة العرابية وعملت على تحديد مساعي السيد جمال الدين ثم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في نطاق الاصلاح الفكري قاضية بان يكون للبطولة مظهر مستقل عن مظهر البطولة الاصلاحية وربما كان في اوقات متعاكسا معه بحيث اننا نجد البطولتين قد تقسمتا شاعري العربية شوقي وحافظا فانصرف شوقي الى التغني بالبطولة السياسية للزعيمين الخالدين مصطفى كامل ومحمد فريد وانصرف حافظ الى تخليد البطولة الفكرية للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

وهنا يستشعر الباحث في مظاهر البطولة في الادب الحديث ان هناك فنا من الفنون الادبية قد اقترن بتخليد البطولة في الادب الحديث اقترانا اوثق من اقتران الشعر ومن اقتران الرواية ومن كل فن آخر الا وهو ادب الصحافة الذي يمتاز بخصائصه الكثيرة بين فنون النثر الاخرى • فاننا لنجد في مقالات الصحف وتعاليقها منذ ابتداء القرن الهجري الحاضر مثلا من البطولة وصورا من اختلاف تقديرها في مجاليها لا يغنينا عنها ما نستخلصه من صور البطولة في الشعر وصورها في الرواية

البطولة في الأدب المسرحي

بقلم عبد القادر القط
(مصر)

فـــي أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، جدت على الادب العربي فنون لم تكن فيه من قبل ، لعل أهمها المسرحية والرواية • وقد تطورت الرواية منذ ذلك الحين حتى أصبح لدينا فيها الآن من الاعمال ما لا يقـل في مستواه عـن الروايات العالمية المعروفة ، أما المسرحية فانها رغم ما أحرزت من تقدم كبير لم تزل تعاني كثيرا من مظاهر النقص في كم الانتـاج وكيفه على الســواء • ففي الوقت الذي نـرى فيه الرواية قد تعددت فنونهـا واختلفت مذاهب كتـابها باختلاف ثقافاتهم وفلسفاتهم السياسية والاجتماعية ، نرى الادب المسرحي في معظمه لا يزال يمر بدور التقليد والتجربة ، تعوزه الخبرة بمقتضيات المسرح وتنقصه الملكات الفنية الكبيرة • والمفارقة بين تطور هذين الفنين ترجع بلا شك الى طبيعة كل منهما • فمهما يكن من جدة الرواية على أدبنا العربي فان لها فيه جذورا عميقة تتمثل في كثير من القصص والاسمار المنبثة في ثنايا كتب الادب القديم ، كما تتمثل في تلك الملاحم الشعبية الطويلة التي تنطوي على كثير من مقومات الرواية الحديثة على صورة غير متطورة ولكنها قابلة للنماء والنضج • وهي الى هذا فن قائم بذاته يكتمل وجوده بمجرد فـراغ الروائي من كتـابته ويتلقاه القارىء كما يشاء ، يقرؤه في أي مكان وأي زمن يريد ، ويتدبر صوره وأجواءه وشخصياته على مهل وينفعل بها انفعالا ذاتيا لا يتأثر بطبيعة تجاوب الآخرين ، وكل ذلك على نقيض المسرحية • فهي مع جدتها على أدبنا الحديث تكاد تكون منقطعة الصلة بالادب العربي القديم انقطاعا تاما ، اذا استثنينا التعزية عند الشيعة ، فليس في ذلك الادب من التراث ما يمكن ان ينتفع به الكـاتب المسرحي في بعض جوانب فنه ، بل عليه ان يعتمد في هذا اعتمادا كليـا على الآداب الغربية التي سبقتنا الى هـذا الفن بوقت طويل • والعمـل المسرحي لا يعتبر تاما حتى يمثل عـلى المسرح فتستحيل الارشادات المسرحية الجامدة الى صورة مادية نابضة بالحياة والحركة والاضواء والظلال ، وينقلب الحوار المكتوب الى أصوات مسموعة لشخصيات حية تتفـاعل مع ما يحيط بها من أحداث ومواقف وأجواء • ونحن حتى في قراءتنا للمسرحية المكتوبة لا بد ــ لكي نستخرج كل ما فيها من معان وامكانيات ــ ان نتمثل تلك الحركة المسرحية المادية ونتخيل الشخصيات في حركتها وتحاورها وكأننا نراها على خشبة المسرحيات وتلك قدرة فنية ونفسية لا تتحقق الا عند من يديم التردد على مشاهدة المسرحيات مشاهدة تجعله قادرا على تجسيم ما يقرأ من ارشادات مسرحية ومن حوار • والمتفرج بعد ذلك على عكس قارئ الرواية يخرج من نطاق فرديته فيصبح جزءا من طائفة كبيرة تتجاوب تجاوبا

جماعيا مع أحداث المسرحية وشخصياتها • وذلك يفرض عليه ان يكون على قدر خاص من الوعى الفنى والاجتماعى يهيئه لتلك التجربة الاجتماعية المشتركة

كل هذه عناصر قعدت بالمسرحية عن ان تجارى الرواية فيما أصابت من تطور كبير • ولكن كتابها مع ذلك قد حاولوا منذ البداية ان يشاركوا قدر طاقتهم فى رسم صور مجيدة للبطولة العربية والانسانية تحفز الهمم وتبث فى النفوس ايمانا بالحياة والمستقبل وملع الرومانسية كانت فى مطلع هذا القرن الطابع الغالب على الرواية والمسرحية ، فان الكتاب المسرحيين فى ذلك العهد قد استوحوا فى بعض أعمالهم مواقف البطولة فى تاريخنا العربى وصوروا فيها من المواقف والمعانى ما يمثل ما كان يعتمل فى نفوس الناس حينذاك من طموح وثورة على الظلم والاستعمار وتفكير فى احياء ما كان لهم من مجد تليد عظيم • من ذلك مسرحية ، صلاح الدين الايوبى ، للمرحوم نجيب الحداد التى مثلتها فرقة الشيخ سلامة حجازى على مسرح « دار التمثيل العربى » منذ افتتاحه فى أواخر سنة ١٩٠٥ ، وظلت تعيد تمثيلها الفرق الغنائية حتى بعد مماته • وقد كان من تعلق جمهور المسرح العربى بموضوع البطولة العربية وخاصة فى شخص صلاح الدين ، ان عاد الى تناول ذلك الموضوع الاديب المفكر فرح أنطون فى مسرحية أسماها « السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم » التى قدمت منذ عام ١٩١٤ واشترك فى تمثيلها اثنان من أعلام المسرح هما المرحوم الشيخ سلامة حجازى ، والاستاذ جورج أبيض • ومن المقارنة بين هاتين الروايتين يمكن ان نلمس تطور فكرة البطولة فى أدبنا المسرحى فى تلك المرحلة الاولى • ذلك ان مؤلف المسرحية الثانية لم يقصر همه على اظهار بطولة صلاح الدين واستثارة اعجاب الناس به اعجابا يجعله عندهم فى موضع التقديس والعبادة ، بل اتجه الى اظهار الصراع بين الشرق والغرب ، ودعوة أبناء العالم العربى كله على اختلاف دياناتهم ومللهم الى التآزر والتعاون على طرد المستعمر من كل قطر عربى • وهكذا تحولت البطولة على المسرح من عبادة البطل لعظمة شخصيته الى الايمان بفكرته • والحق ان هذا التحول يمثل ما كان يجرى فى المجتمع العربى حينئذ من تطور خطير بظهور الطبقة المتوسطة والعاملة ، وظهور شخصية الفرد العادى التى كانت ضائعة من قبل أمام سلطان فرسان العصور الوسطى وأمراء الاقطاع وطغاة الحكام والولاة • وهو تطور حدث مثله من قبل فى المجتمعات الاوروبية فانعكست آثاره على الاعمال المسرحية وبدأت البطولة تهوى من سماء الفرسان والامراء وأنصاف الآلهة الى عالم الرجل العادى بمشكلاته وكفاحه ومعاناته فى سبيل تحقيق الحياة الكريمة لنفسه ولابنائه • وهكذا تحولت المسرحية العربية بالتدريج ــ فى خروجها من المرحلة الرومانسية ــ الى معالجة أدواء المجتمع العربى وتصوير المفارقة بين حياة الاثرياء والفقراء فيه والحديث عن معانى الحرية والديمقراطية التى كانت تدور فى نفوس العرب حينذاك • ولكنها مع ذلك لم تهمل تصوير البطولات العربية القديمة والمواقف التاريخية

الحاسمة التى تعتز بها العرب ويستمدون منها الشجاعة والايمان بالنفس . فقد كان الصراع الدائـر فى المجتمع العـربى ذا جانبين يتجه أحدهما الى محـاربة الاستعمار ويحاول الآخر ان يشارك فى التقدم الاجتماعى وخلق وعى بالمشكلات التى تعوق التطور . على ان المسرحية التاريخية لـم تقتصر على رسم البطولات وتمجيدها بل حاول كتابها فى كثير من الاحيان ان يربطوا بين الماضى والحاضر ويلقـوا على مشكلات مجتمعاتهم أضواء من التاريخ تنبه النـاس اليها وتثيرهم عليها ، وتصف لهم فى بعض الاحيان طريقة حلها . وهذا فى الحقيقة ضرب من الرمز كان المسرحيون يلجؤون اليه فرارا من رقابـة الطبقة الحاكمة من ناحية واثارة لخيال المشاهد لكى يصل بنفسه بـين الماضى والحاضر من ناحية أخرى : ومن ذلك ما فعله شوقى فى كثـير من مسرحياته وبخاصة مصرع كليوباترا ، وما فعله عزيز أباظة فى مسرحيته « غروب الاندلس » . وسواء كان شوقى فى مسرحية كليوباترا قد أراد عن عمد ان يشير من خلال أحداث التاريخ الى مفاسد عصره أم تحدث كما تقتضى طبيعة الموضوع فانه استطاع ان يعقـد صلة متينة واضحة بين الماضى والحاضر ويلفت المشاهدين الى ما كان فى مجتمعهم من شرور تشبه ما يشاهدون على خشبة المسرح ، كقوله المعروف :

حابى سمعت كما سمعت وراعنى   أن الرمية تختفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم   وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئا   لو استطاع مشى على الاهرام

وقولـه :

أنظر الشعب ديون   كيف يوحون اليه
ملأ الجو هتافا   بحياتى قاتليه
أثر البهتان فيه   وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء   عقله فى أذنيه

ولـم يقتصر تصوير البطولة فى المسرحية على الاشادة بالمواقف المجيدة لابطال التاريخ بل حاول الكتاب والشعراء المسرحيون ان يعيدوا تفسير التاريخ بما يتفق مع نزعاتهـم الوطنية ويرضى شعورهم القومى ويتيح لهـم أن يرسمـوا لمشاهديهم مثلا عليا من التضحية وانكار الـذات . وهكذا رسم شوقى صورة جديـدة لكليوباترا غـير تلك التى عرفناها فى كتب التـاريخ والمسرحيـات والقصص الاروبية فجعلها ملكة حكمية مدبرة قد وضعت لنفسها خطة سياسية تنفذها فى براعة . فنراها تعلل انسحابها من موقعة اكتيوم بأنها قد أرادت ان تنتهى الموقعة بتحطيم أسطولى روما فلا يبقى فى البحر الابيض الا أسطول مصر القوى . ثم نراها تفسر سلوكها مع الرجال تفسيرا آخر غير ما اعتاد التاريخ ان

يقــدمه فتقـــول :

كـأنى بعـدى بالاحـاديث سلطت ... علـى سـيرتى أووكلت بحيـاتـى
يقولون أنثى أفنت العمر بالهـوى ... بهيميـة اللـذات والشهـوات
فـدى لغرامى بالرجال وحسنـهم ... غـرام الغوانى أو هـوى الملكـات
فليس الغلام البارع الحسن فتنتى ... ولا الرائـع الاجـلاد والعضـلات
ولكــن عشقت العبقـرية طفـــلة ... وفى الغافلات البـله من سنـواتى

ونراها مرة أخرى تحلل شخصيتها المعقدة وتؤكد هذا المعنى مرة ثانية فتقول :

بنت الحيـاة أنـا وتشهد سـيرتى ... مـا كنت من أمى سـوى تمثـال
عنـها تنـاولت الـريـاء وراثـــة ... وأخـذت كـل خـديعـة ومحـال
وقسوت قسوتهـا ولنت كلينـهـا ... واقتسـت فى صدرى بهـا ووصالى
ووجدتهـا قـد خلـدت أبطـالهـا ... فبسطت سلطـانى علـى الابطـال

ثـم يصور شوقى انتحارها لا على انه فرار من مأزق لم يكن لها مفر منه الا بالموت بـل يعده تضحية مقصودة فى سبيـل الوطن حتى لا تدنس كرامته فى شخص ملكته فتقـول :

أبـى لا العـزل خفت ولا المنـايـا ... ولكـن ان يسـيروا بـى سبيـــا
أيـوطـأ بالمنـاسـم تـاج مصـر ... وثمت شعـــرة فـى مفـرقيـــا

وتقـول مرة أخــرى :

أأدخـل فى ثيـــاب الـذل رومـا ... وأعـرض كالسبى علـى الرجـال
وأحـدج بالشمـاتـة عـن يمينـى ... ويعـرض لى التهـكم عن شمـالى
اذن غـير المــلوك أبــى وأمـــى ... وغـير طـرازهـم عمـى وخـالـى
حيـاة الــذل تـدفـع بالمنـايـا ... تعـالى حيـة الـوادى تعـالى

ويقول عنها الكاهن انوبيس بعد أن انتحرت :

بنتى رجـوتك للضحيـة والفـدى ... فوجدت عنـدك فـوق ما أنـا راج
ان تصبحى جسـدا فنفسك حـرة ... وعـلاك سالمـة وعـرضـك نـاج
سيقول بعـدك كل جيـل منصف ... ذهبت ولكــن فـى سبيـل التـاج

ثـم يختم شوقى مسرحيته بوعيد قد لا يتمشى مـع أحداث التاريخ ولكنـه يصور شعور أنوبيس الذى يمثل فى الرواية مشاعر المصريين جميعا فيقول :

قسمـا مـا فتحتمـوا مصر لكـن ... قـد فتحـتم بهـا لرومـة قبـرا

وقـــد سقنا هذه الامثلة من تلك الرواية الشعرية لان المسرحية الشعرية قد ارتبطت منذ البداية بالتاريخ وتجنبت الموضوعات المعاصرة التى قد تخلق شيئا من المفارقة بين طبيعة الشخصيات العصرية والحوار الشعرى · والمسرحية

الشعرية لهذا أحفل بتصوير البطولات من المسرحية النثرية ، والبطولة فيها تسمو بالتركيز وبما فى الشعر من انفعال قوى وتعبير نفاذ ، الى درجات لا ترقى اليها فى غيرها من المسرحيات

علـــى ان صراع العرب الدائم مع الاستعمار وقوى الشر فى داخل المجتمع العربى نفسه قد فرض على الكتاب المسرحيين ان يصوروا البطل فى معظم الاحيان فى صورة نموذجية تجتمع فيها كل صفات البطولات فى أسمى درجاتها وتنتفى عنها كل نقيصة يمكن ان تشوب شخصية البطل ، لذلك أصبح هؤلاء الابطال فوق مستوى المشاهد لا يمكن ان يتطلع الى الوصول يوما الى مستواهم أو يطمع فى ان يأتى ببعض ما يأتون من خوارق ، وهو لهذا يعجب بهم ولكنه اعجاب فيه كثير من الروعة والدهشة تملآن عليه نفسه بانفعالات مثيرة قوية ، ولكنها غير واضحة لا يعرف الى م تتجه ولا ما تريد ان تحقق • وهكذا غلبت على تلك المسرحيات طابع الميلود راما التى تعتمد على المواقف المثيرة والاحداث المعقدة والاسلوب الخطابى الرنان • ولا شك ان مثل تلك المسرحيات قد قامت بدور خطير فى تعبئة الشعور القومى وردت الى المشاهدين ثقتهم بأنفسهم بعد ان فقدوها تحت وطأة الظلم والهوان الطويل • ولا شك أننا لا نزال فى بعض اللحظات الحاسمة من تاريخنا الحاضر محتاجين الى هذا اللون من المسرحيات الذى يخاطب عواطف المشاهدين بصورة مباشرة ويرسم لهم البطل انسانا كاملا فى شجاعته وقوته وتضحيته • وانا لنذكر فى هذا المقام الدور المجيد الذى قام به المسرح أثناء معركة بورسعيد وبعدها مما كان له أكبر الاثر فى شد أزر المحاربين وبعث الحماسة البالغة فى نفوس المواطنين • والحق أننا لا يجوز ان نلتمس فى مثل تلك المسرحيات ما ننشده فى المسرحيات الاخرى من مقومات فنية خاصة وقد أعجل كاتبها عن التجويد وتهيأت نفوس مشاهديها فى تلك اللحظات الحاسمة الى تلقى ما فيها من معانى الوطنية دون نظر كبير الى جوانبها الفنية • ولا ينبغى ان نغفل فى حديثنا عن المسرحيات التى تعالج موضوعاتها معالجة مباشرة ، ان طائفة كبيرة من المجتمع العربى لا تزال فى مستوى فكرى واجتماعى لا يسمح لها بالانتفاع بما فى المسرحيات الفنية الكبيرة من عواطف وأفكار وأنهم فى اشد الحاجة الى التعليم فى اطار فنى يتناسب مع وضعهم الفكرى والوجدانى • ولا شك ان المسرحيات التعليمية رغم قصورها من الناحية الفنية تؤدى خدمة كبيرة لهذا القطاع الكبير من المجتمع ، وهى ضرورة من ضروريات المرحلة الاجتماعية التى نجتازها فى هذه الايام •

علـــى أننا مع ذلك يجب ان نتنبه الى ان المسرحيات التعليمية المباشرة رغم أهميتها لمجتمعنا العربى فى مرحلته الحاضرة لا ينبغى ان تستأثر بكل اهتمام كتاب المسرح أو تؤخذ مقياسا للابداع والاجادة الفنية والا فسيظل مسرحنا خاليا من الاعمال المسرحية الكبيرة التى يعالج الكاتب فيها من الانفعالات النفسية أو المواقف الانسانية ما لا يتصل اتصالا مباشرا بالقضايا السياسية الكبرى وان ارتبط بها فى النهاية ارتباطا وثيقا عن طريق الإيحاء واعطاء المشكلات

الصغيرة دلالات اجتماعية كبيرة ٠ وسيظل المشاهد العربى ـ اذا دام اعتماده على المسرحية التعليمية ـ عاجزا عن ان يتـذوق ما فى الفـن المسرحى الرفيـع من مقومات لا يدركها الا ذوق مصقول وفكر مثقف ، مما لا يكون الا بطول التردد على المسرح ومشاهدة روائعه التى تتحقق فيها تلك المقومات ٠ وينبغى فى هـذا المقام ان نتبين طبيعة البطولة فى المسرحية الحديثة وندرك ما طرأ على مفهومها القديم من تحول ٠ فالبطولة شىء نسبى لا يتمثل فى ضخامة العمل الذى يأتيه البطل بقدر ما يتمثل فى المعاناة النفسية التى يبذلها فى سبيل تحقيق ارادته وان تمثلت فى عمل صغير ٠ فالفلاح الذى يبذل جهدا ماديا ونفسيا كبيرا فى اصلاح قطعة أرض صغيرة ويمضى فى اصرار وقوة ارادة حتى يتم له ما يشاء يمكن ان يكـون موضوعا للبطولة فى عمـل مسرحى ناجح ، والفرد الذى يغـالب نفسه لينتصر فى محيط حياته المحدود على هوى شخصى يوشك ان يصرفه عـن أداء واجبه كمواطن صالح أو ليخرج ظافرا من محنة خاصة ألمت به ، يمكن ان يكون بطلا تبث بطولته فى نفس المشاهد من المعانى ما يمكن ان ينصرف الى كثير من من الموضوعات الاجتماعية والمشكلات الانسانية الكبيرة ، التى لا تتصل اتصالا مباشرا بحياته ومشكلته الخاصة ٠ والايمان الذى يتسرب فى نفس المشاهد من خلال تلك الاعمال المسرحية ذات البطولة الانسانية المعقولة ينفذ اليها بطيئا من خلال وجدانه فيستقر فى عقله الباطن الذى هو فى الحقيقة خلاصة شخصيته ومنبع سلوكه ٠ ولا شك ان الايمان الوجدانى أبقى وأبعد أثـرا فى شخصية الانسان من الايمان العقلى الذى يمكن ان ينهار عند أول برهان يناقضه ٠ ودور الفن الهادف فى الواقع يتمثل فى خلق ذلك الاقتنـاع الوجدانى ليقترن بمـا يخلقه المصلحون والمفكرون عند المواطنين من اقتناع فكـرى يقـوم على الحجـة والبرهان ٠ وليس معنى ذلك بالطبع ان الفن يمكن ان يخلو من العناصر الفكرية الهامة ولكن تلك الافكار لا بد ان تستحيل فى العمل الفنى الى أحاسيس يتلقاها المشاهد أو القارىء بوجدانه قبل كل شىء ٠ ولا شك أننا اذا أدركنا ذلك كله سنجد فى الموضوعات الاجتماعية وفى حياة المواطن العادى معينا خصبا لاعمال مسرحية ناجحة تشارك فى تطور المجتمع بما تقدمه من ألوان البطولة الانسانية فى مواجهة المشكلات الحيوية والازمات النفسية المختلفة ، وسننصرف بالتدريج عن المعنى السائد للبطولة على أنهـا تحقيق الاعمال الخارقة التى تستـلزم فى الغالب قوة جسدية ثم نفسية معجزة الى معان نفسية جديدة فيها كثير من العمق والاصالة الواقعية ، وفيها مع ذلك صقل للذوق واثراء للفكر وتنمية للشخصية الانسانية ٠ وسيتبع ذلك ان يجذب المسرح كثيرا من أولئـك الذين ينصرفون عنه لانهم لا يجدون فيه تصويرا صادقا لحياتهم ولا عرضا واقعيـا لشخصيات مجتمعهم الذى يعيشون فيه ولا حوارا بسيطا قريبـا من لغتهم التى يتحدثون بها دون ان تكون فيه تلك الخطابية والالفـاظ الضخمة التى تفرضها طبيعـة البطولة التاريخية أو الاسطورية الخارقة

ولا يفوتنا فى هذا المقام ان نشير الى تخلف المسرح فى كثير من بلادنا العربية فلا نكـاد نجد منه فى معظم تلـك البـلاد الا المسارح الغنائية أو دور اللهـو

والتسلية ، ولا نكاد نظفر فيها بمسرح واحد قد زود بأحدث الوسائل المادية الحديثة التى تتيح للمؤلف مزيدا من الحرية وللمخرج وللممثل مزيدا من الابداع وللمشاهد من الراحة والاستمتاع ما يصرفه شيئا ما عن دور السينما ويخلق لديه حب المسرح والرغبة فى التردد عليه · لقد بدأت النهضة المسرحية فى البلاد العربية منذ وقت ليس بالقصير وتئازرت هذه الدول فى خلق تلك النهضة تئازرا تمثل فيه ما بينها من روابط متينة وأخوة مشتركة · فلقد قام المسرح فى مصر أول ما قام على يد رواد من لبنان ومن سوريا وغذاه هذان القطران بأعلام الممثلين والممثلات والمؤلفين من أمثال القبانى وجورج أبيض وعزيز عيد وروز اليوسف وفرح أنطون ونجيب الحداد وغيرهم · كما أهدى العراق الشقيق الى مصر ابنا من أبنائه صار بعد الركن الاول للمسرح الفكاهى فى مصر هو نجيب الريحانى · وحرى بالبلاد العربية فى هذه الايام الحاسمة من تاريخها ان تستأنف تعاونها فى هذا السبيل مرة أخرى ، فتنتشل المسرح مما هو فيه من تخلف وتدفعه لكى يساير النهضة العربية الثائرة ، وتقدم الفنون الاخرى التى بدأت التطور مع الادب المسرحى فى وقت واحد ولكنها سبقته بشوط طويل · صحيح ان فى الجمهورية العربية نهضة مسرحية كبيرة تتمثل فى المسرح القومى الذى توليه الدولة كثيرا من الرعاية والذى يقوم بجهد ضخم فى النهوض بالمسرح واجتذاب رواد جدد اليه عن طريق تقديم الاعمال المسرحية الكبيرة من الآداب الاوروبية والادب العربى ، كما تتمثل فى فرق أخرى من الهواة كفرقة المسرح الحر وغيرها · وفى الجمهورية العربية معهد عال للتمثيل يتخرج فيه كل عام عدد لا بأس به من الممثلين والنقاد الذين يضمون الى الموهبة ثقافة واسعة منظمة · ولكننا مع ذلك ما زلنا نأمل ان تمضى هذه النهضة الى أبعد من هذا فيكون لدينا مسارح كبيرة مزودة بأحدث الاساليب الفنية والعلمية ، وفرق مسرحية منتشرة فى أنحاء الجمهورية لا يقتصر نشاطها على العاصمة وحدها ، وبذلك ينمو الوعى المسرحى عند الجماهير ويزيد اقبالهم على المسرح وتعظم قدرتهم على التمييز بين الجيد والردىء من أعماله · كما نرجو ان يشيع هذا الوعى فى بلادنا العربية جميعا حتى لا يحرم الجمهور العربى من الاستمتاع والافادة بهذا الفن الانسانى الجميل النبيل ولن يتحقق هذ االا بأن تستأنف تلك البلاد كما قلنا تئازرها القديم فى هذا السبيل ، فتعقد مؤتمرا خاصا لشؤون المسرح ترسم فيه الخطط للمستقبل القريب من بناء المسارح واعداد الممثلين والمخرجين وتشجيع المؤلفين وغير ذلك · والى ان يتحقق ما نرجوه من عقد هذا المؤتمر الخاص نرجو ان تنظر هيئة المؤتمر فى اقرار هذه التوصيات :

١ — يوصى المؤتمر بأن تهتم الحكومات العربية ببناء المسارح الحديثة وترصد لها فى ميزانياتها ما يكفل تنفيذ بنائها فى أقرب وقت

١ — تنشىء الحكومات العربية معاهد للتمثيل والنقد حيثما أمكن أو ترسل بعثات الى البلاد العربية والاوروبية للتخصص فى هذين الفنين

٣ ـ تنظر الدول فى مكافاة الممثلين والمخرجين بما يتناسب مع مواهبهم وما يبذلون فى فنهم من جهد

٤ ـ تشجع الدول المؤلفين وتمنحهم مكافئات لا تقاس بما تصيب أعمالهم المسرحية من نجاح أو فشل مادى بل بمقدار ما تقدمه هذه الاعمال من مشاركة فى تطور فن المسرحية · وتكون الدول لهذا الغرض لجان قراءة تكون مهمتها كشف الملكات الجديدة عند الناشئين من المؤلفين وتقديم الاعمال الممتازة عند الناشئين والكبار على السواء

البطـــولـة فى السينمـــا

أمـــا السينما فقد غلب عليها التقليد منذ نشأتها الاولى · وهى لامكانياتها الواسعة فى تصوير الاحداث بكل جوانبها وتفصيلاتها تعنى عناية كبيرة بالبطولات التى تتمثل فى مواقف مادية تبين قوة البطل الجسدية وتثير لهفة المشاهد على مصيره · ولكن مصير البطل فى السينما يكاد يكون دائما معروفا من قبل فهو لا بد ان يخرج منتصرا من كل مأزق ويسحق أعداءه أو يقهر ما يحيط به من ظروف سيئة وغير ذلك · وذلك على نقيض المسرح الذى تقتضى امكانياته المادية المحدودة ان يكون أول همه تصوير الاحوال النفسية والعواطف والافكار الانسانية فى أضيق نطاق مادى ممكن · والحق ان المواقف المادية فى المسرح ليست عند الكاتب المسرحى المجيد الا مجرد مفاتيح لتلك الاحوال والعواطف والافكار

وصـــورة البطل فى السينما العربية تستمد معظم سماتها من البطولات الاجنبية وبخاصة الامريكية وهى لذلك رغم ما قد يكون فيها من اثارة لا تبنى شخصية المشاهد القومية بناء سليما يقوم على مخاطبة ما فى نفسه من قيم موروثة وطريقة احساس وادراك تنبع من البيئة العربية التى يعيش فيها · صحيح ان بعض الافلام العربية قد صورت بعض البطولات العربية التاريخية كصلاح الدين مثلا ، ولكن هذه الافلام لم تحرص على الاصالة ولم تول أعمالها ما هى جديرة به من عناية وجهد ، فجاء معظمها مجرد نسخ مشوهة للافلام الامريكية فى مثل ذلك الموضوع

وممـــا يؤسف له ان كتابنا قد عزفوا منذ البداية عن الكتابة للسينما رغم أنها قد أصبحت الفن الجماعى الاول للمجتمع العربى ، ورغم ما لها من تأثير هائل فى نفوس الشباب يغير من سلوكهم وشخصياتهم وحتى أزيائهم فى كثير من الاحيان · وقد بدأ المنتجون والمخرجون يحسون أخيرا بأن القصة الجيدة هى الاساس الاول لصناعة السينما وان السينما بدونها ستظل ضربا من البراعة الفنية فى التصوير والتمثيل لا ينفذ الى صميم الحياة ولا يهز نفوس المشاهدين ولا يجلب عليهم فى النهاية ما يبغون من ربح · وهكذا أخذوا يبحثون عن القصة الجيدة فى أعمال كبار أدبائنا ونوابغ الشباب العربى فيحيلونها الى نصوص

سينمائية استطاعت ان تكون أساسا لبعض الافلام الكبيرة الناجحة • كما بدأ كثير من الكتاب المعروفين يقبلون على الكتابة لهذا الفن ويصورون فيها ألـوان البطولة العربية التاريخية والاجتماعية على السواء • ومن ذلـك فيلم رد قلبى للاستاذ يوسف السباعى ، وفيلم جميلة للاستاذ نجيب محفوظ وعبد الرحمان الشرقـاوى ويوسف السباعى ، وقد غلب على السينما العـربية فى معالجتـها للمشكلات الانسانية والاجتماعية الحدة والمثالية والمواقف المتكلفة والحلول غير الطبيعية • على انه من حسن الحـظ ان القائمين بأمرها قد بدأوا يدركـون ان المشاهد العربى قد أصبح أنضج من ان يتـأثر بتلك الالـوان الفنية الساذجة فاتجهوا فى كثير من أعمالهم اتجاها واقعيا سليما ، وبدؤوا يدركون ان البطولة قد توجد فى الكوخ كما توجد فى القصر ، وقد تتمثل فى جهد العامل او الفلاح الصغير كما تتمثل أو خـيرا مما تتمثل فى عظمة الامـراء والفـرسان وجرأة اللصوص والمنحرفين • وانا لنرجو ان تمضى السينما العربية فى هذا الاتجـاه لتشارك فى بناء مجتمعنا العـربى الجديد مقدرين فى الوقت نفسه ان شعبيـة هذا الاتجاه لتشارك فى بناء مجتمعنا العربى الجديد مقدرين فى الوقت نفسـه ان شعبية هذا الفن تقتضى كثيرا من الانتاج الذى يهـدف الى تسلية المشاهـد فحسب ، ولكننا مع ذلك نرجو ان لم تنطو هذه التسلية على فائدة نفسية أو فكرية ، الا تنطوى على الاقل على ضرر يصيب المشاهدين من الشباب بالشذوذ والانحراف • كما نرجو من كتابنا ان يقبلوا على الكتابة لهذا الفن الخطير ويولوه من العناية ما يتناسب مع تأثيره الضخم فى شباب المجتمع العـربى وكهـوله علـى الســـواء •

● منصور فهمي والروحانيات

كثر الكلام في المؤتمر عن المجتمع وعن أثره في خلق البطولة والابطـال ولم يخف بعض المتكلمين ايمانهم بالاسلوب الماركسي في استقراء التاريخ وتفهم الواقع ممـا اثار حفيظة الدكتور منصور فهمي فقام اثر احدى المحاضرات وصاح في الحاضرين قائلا :

« ايها السادة ... بل ايها الورثة ، احذركم من كلمـات جرت في سوق المعاملات بين الشباب . كثير من الشباب احيانا اجـدهم يمر على لسانهم عبـارة الكهنوتية والصوفية ... اعلموا ايها الابنـاء ان كتابكم يقوم على قداسـة العزة وقداسة الروحية وان ادبكم يقوم على الايمان بالمثل الرفيعة والسجايـا النبيلة ، لا تغتروا بالالفاظ ان الروحية هي التي تصـل الارض بالسماء وتومىء الارتفاع والى السمو والعظمة »

تحية المؤتمرين

بقلم محمد شوقي الايوبي
(الكويت)

طلعت علينا نخبة الادباء ... بمشاعل وهاجة الاضواء
بمشاعل قدسية امجادها ... فرح القلوب بمجمع الكرماء
هي للعروبة في مضارب عزها ... نور تالق في دجا الظلماء
طرب الحمى شوقا اثار مشاعرا ... جبلت على نبل وطيب ثناء
فحملت قلبي لاهفا متوجدا ... متغزلا بعرائس الصحراء
ووقفت اتلو قصة الامل الذي ... غذيته للوحدة الشماء
وكأن ابطال الجزائر حلقوا ... فوق الخليج بعزمة ومضاء
كبحوا جماح الغاصبين وحددوا ... اشتاتهم في حومة الهيجاء
يتوثبون الى الكفاح كانهم ... شهب تصد جحافل الاعداء
لا يرهبون الموت انى وجهت ... ابصارهم للعزة القعساء
فمن المحيط الى الخليج طلائع ... تدعو ليوم النصر خير دعاء
ان العروبة اين كان مقرها ... هي وحدة محبوكة الارجاء
مصر وليبيا والجزائر تلتقي ... بمراكش او تونس الخضراء
هي في ربوع الرافدين اخوة ... لم تنتهك بخيانة وجفاء
هي في الكويت وفي الرياض اواصر ... منسوجة بانامل العلياء
قبل ثرى الشام الحبيب وقل له ... انا هنا نصغي لعذب نداء
مهما تنادى الخائنون لكيدهم ... توليهم صفعا قوى الخلطاء
ومرابع عبث المغير بساحها ... هبت ليوم كالح الارزاء

تاتي على مستعمر او خائن ... او مغرض بمصائب سوداء
في كل قطر من مرابعنا انبرى ... بطل يهد معاقل الجبناء
يمشي على ضوء الحقيقة معلنا ... حق الشعوب بغارة شعواء
ايه حماة الفكر هذا يومكم ... لتفندوا اسطورة اللؤماء
قولوا لاعداء الشعوب مكانكم ... والويل للباغي من البرحاء
اين الذين تمردوا وتجبروا ... ذهبوا عليهم اثقل الاسواء
حق علينا ان نثير عزائما ... في ندوة الادباء والشعراء
والشعر موسيقى الحياة ولحنها ... ينساب حلوا خالد الاصداء
للحق للوطن المفدى شعري ... الساري وللخرية العذراء
من لم يكن حرا فذاك حظه ... سجن الحياة بمجمع الاحياء

● بنت الشاطيء وامين الخولي

عقب كل جلسة تخرج الدكتورة بنت الشاطيء لتبحث عن زوجها الاستاذ امين الخولي فلا تجده ، وعندما تلقاه تقول له : « الله ، انت كنت فين ؟ انا دورت عليك في كل حتة ، اوعى مرة ثانية تروح وتسيبني ! »

● اين أمين !

والسيدة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) مهتمة بجانب عنايتها بقضايا الادب ومشاكله بزوجها الاستاذ امين الخولي : ولذا طلبت من جميع الادباء ان يفردوا لها كرسيا خاليا بجانب زوجها بصورة مستديمة حتى تستطيع ان تضمن الجلوس بجانبه باستمرار .

البطولة في الأدب الشعبي

بقلم عبد الحميد يونس
(مصر)

لا بد لنا ان نقدم بين يدي هذا البحث بعض الفكرات الاساسية التي تحتاج الى شيء من الايضاح ؛ فان الامة العربية بحكم وضعها التاريخي، وموقعها الجغرافي ذات تراث طويل متواصل ؛ وهو تراث لونته البيئة المادية؛ وصاغته البيئة الاجتماعية واثرت به في حياة الانسان بصفة عامة من الناحيتين العقلية والوجدانية . وتراث كل امة هو خلاصة المعارف والمشاعر والتجاريب التي يسلمها كل جيل الى الجيل الذي يكر بعده . واذا قلنا « التراث الثقافي » للامة العربية ؛ فانا لا نعنى بذلك التراث العلمى فقط ، ذلك لان الثقافة بمعناها المتسع تنتظم جميع الخبرات ؛ والاعمال في هذا المجتمع ؛ وهى لذلك اوسع مدى بكثير من المعرفة ومن العلم ؛ ومن هنا كان الجانب الوجدانى من هذا التراث ينتظم المأثور من فنها وادبها . وكانت دائرة الادب فيه تضم ادب الخاصة ومن كانوا يسمون بالعامة على السواء .

والادب الشعبي ، كما نعرفه اليوم ؛ يتسم بخصلتين اساسيتين : اولاهما ، وهي على جانب كبير من الاهمية في موضوعنا ؛ انه ادخل في الجهد الجمعي منه في الجهد الفردي ؛ ومع ان الادب باعتباره فنا جميلا يتوسل بالكلام او اللغة المنطوقة، الا ان طابع الشخصية الفردية لا يظهر فيه . ولا تخرجه هذه الخصلة اطلاقا من نطاق الفن المحقق للحياة بالتعبير ؛ اذا نحن نظرنا الى الجماعة التي يصدر عنها باعتبارها شخصية متكاملة منسجمة ، لها ملامحها النفسية ؛ ووجدانها المعبر ، وهي تقابل في هذه الناحية الفرد بوجدانه الخاص ، وملامحه النفسية المميزة وهذا هو السبب الذي جعل اكثر الآثار الشعبية مجهولة المؤلف او تكاد ، والمنسوب منها الى مؤلف بعينه، تحتاج النسبة فيه الى تحقيق . ولايمنع هذا ان تكون هذه الآثار قد صدرت عن آحاد باعيانهم ، بيد ان هؤلاء الآحاد اندمجت وجداناتهم في وجدان الجماعة من ناحية ، ولم تحتفل الجماعة بخصوصيتهم احتفالها بخصوصيتها هي من ناحية اخرى . اما الخصلة الثانية، وهي لا تقل عن الاولى اهمية، فهي ان الابداع

والتذوق في الادب الشعبي واحد . واذا كان الفنان الفرد يبدع اثره اولا استجابة لوقع الحياة على نفسه في لحظة او لحظات ، ثم يأتي المتذوق فيتفاعل مع الاثر الادبي فان الحاجز بين الابداع والتذوق في الادب الشعبي لا يكاد يلحظ ، لان الوجد ان الجمعي هو المبدع ، وهو المتذوق في وقت معا .

ونمت فكرة اخرى لا بد من توضيحها ، وهي وسيلة الفن القولي الشعبي ، ونقصد بها اللغة المنطوقة ، فالاصل في اللغة هو المخارج المركبة التي اصطلحت الجماعة على دلالاتها ، وهي ثمرة التجمع والعامل عليه ، ولا توجد رابطة اقوى منها في اي جماعة وهي تمكن الفكرة فقط ولكنها تحكي الستور ايضا ، ولا بد ان يدخل في اعتبار طبيعة الصوت والمخرج ، والنبرة ، والاسترسال والارتفاع والوقف وما الى هذا السبيل .. اللغة ملامح الجماعة وشخصية الفرد ، وفكرته الخاصة واحساسه الخاص في موقف بذاته ... ولغة الامة هي الحصيلة الكاملة للروابط الاجتماعية فيها عن طريق الاتصال بالتبلاغي ، وتدخل فيها صورها الطبقية ودراناتها وعلاقاتها ولغة الامة العربية - كما ادرك الاقدمون - هي مجموع ما يصدر عن اللسان العربي على اختلاف اللهجات والبيئات ومن هنا كان ادبنا المتوسل بلغتنا ليس الفصيح وحده ، ولا المدون وحده ولكنه الادب الذي يتوسل بجميع اللهجات في جميع البيئات والاجيال .

وتقودنا هذه الفكرة الى تصحيح الزعم الملح الذي اصبح في بعض الاوساط العلمية والادبية من الحقائق المسلمة وهو الزعم الذي بدا به الفيلسوف الفرنسي «ارنست رينان» الذي يهمنا منه افتقار الشعب العربي الى التجسيم الملحمي والدرامي فالواقع ان الامة العربية كغيرها من الامم مرت بالطور الاسطوري ، والطور الملحمي وتاريخها اقدم من الجاهلية الثانية المصطلح عليها وبقايا اساطيرها التي فقدت وظائفها الحيوية ، مبثوثة في كتب التاريخ العام ، وتقويم البلدان وعجائب المخلوقات اما ملاحمها فلا تزال حية فعالة في المجتمع الى يومنا ، وهي تستكمل كل مقومات الملحمة ... والبطولة في الادب الشعبي ، اذا اردنا ان نستخلصها ، فان الواجب يقتضينا ان ننظر في هذه الملاحم .

البطولة بين الاساطير والملاحم

وليس من غرضنا ان نحتكم الى فلسفة التاريخ ، وما تتشعب عنه من مذاهب ،

وحسبنا ان تنظر الى تطور فكرة البطولة في المجتمع باعتبارها عاملا من عوامل « التغير » في حياة الانسان فلقد كانت الاسطورة تحكي عند الجماعات البدائية فعال اله او شبه اله ، وتفسر بنطق العقل البدائي ظواهر الكون ، وتعلل العلاقات والنظم والعادات وتنظيم القول والاشارة والايقاع والرسم وصياغة المادة والبطل فيها هو الخالق للقدر وللمصير وهو فوق الطبيعي والممكن ومع ذلك فالبطل الاسطوري يحكي نزوع الانسان الى المعرفة والكشف عن المجهول واستئناس المتوحش والتحكم في العناصر والتغلب على الزمان وعلى المكان. وايا كان التفسير الذي يذهب اليه اصحاب علم النفس او الانسان او الاجتماع فان الاسطورة انما تميز من غيرها بوظيفتها الحيوية الفعالة وطابعها المتصل بالعقيدة البدائية .

اما البطل في الملحمة ، فهو انسان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى مهما كانت قدرته ، ومهما كانت الفوارق التي يقوم بها ، ومهما كانت القوة التي تعينه او يستعين بها ، ومع هذه الانسانية فيه ، ومع وضوح ملامحه ومشخصته فانه ليس فردا محدودا بذاته الخاصة ، لانه « المثال » الذي ابتدعه وجدان الجماعة ليكون نموذجا لكل من افرادها فهو جماع فضائلها ، وهو المحقق لاحلامها ورغائبها . واذا كانت الملحمة التي تصدر عن الوجدان القومي تحكي ضربا من الصراع فاننا نلاحظ ان هذا الصراع يقوم على دعامتين اولاهما : صراع العدو المشترك ، وثانيهما ، تقويم السلوك في الجماعة بحيث يصبح متفقا مع الاحداث العامة ، ومسايرا لمثل الجماعة في وقت واحد :

والملحمة الشعبية تمهد دائما لظهور البطل ، وهي تبدأ قبل خروجه الى الدنيا وتمر بمراحل من الارهاص والتبشير ، ثم تاخذ في متابعته خطوة خطوة وتثقفه بما ينبغي لمثله ان يثقف وتهيؤه لاحداثه الكبرى واعماله غير المألوفة لاياتي العجب فيها من الشذوذ وانما ياتي من المبالغة في المالوف نفسه والبطل الشعبي على موعد ابدا مع القدر ، انه يختلف عن البطل الدرامي التراجيدي، فالاول لا يتعقبه خطأ وقع فيه او قام به غيره ولا ياخذ في مصارعة القدر ، ولذلك تختلف النهاية لكل منهما ، فبطل الملحمة ينتصر ، والبطل التراجيدي ينهزم . والشعب الذي يحقق امانيه بالملاحم يعرف النهاية او يرسم النهاية ، ولا يقوم التشخيص على الكشف عنها بل يقوم على انتظارها ، وهي انتصار البطل الممثل لقومه المجسم للخير

ولا يمكن ان ينتظر الشعب شيئا آخر غير هذا ... والابطال الثانويون يعملون على التكامل النفسي للشعب ، بهم يجسمون بعض الصفات ، وبعض المزايا ، وقد يحدث خلاف جانبي بينهم ياتي ثمرة لصراع ثانوي بين الذات المفردة او العصبيات الصغيرة وبين الذات العامة ، ولا بد ان تتغلب الفكرة القومية العامة آخر الامر ، ولا يكون ذلك على حساب الجماعية وانما يكون خضوعا لوجدانها المشترك .

عصر البطولة

والشعب عندما يتفنن بالادب على هذه الصورة الملحمية كالفرد عندما ينشيء أثرا ادبيا ... ان اول ما يقوم به هو ان ينتخب ما يلائم موقفه الشعوري الخاص ، ولما كان موقف الشعب يتصل بغيره من سائر الاقوام فهو يبحث عما يلائم هذا الموقف ، ولذلك نراه دائما يلتفت الى الوراء يفتش في احداث الماضي ، ويتصور لضرورات التجسيم والانسجام القومي ان هناك عصر اذهبيا او ان هناك عصر آخر للبطولة . فاما العصر الذهبي فهو مثال الحضارة والنعيم واما عصر البطولة فهو مثال الفضائل القومية الخالصة ولذلك كان من الطبيعي اذا تجاوزنا عن المغازي الشعبية ، وعن سير الاولياء كما تصورها الشعب الى الملاحم المتكاملة ، ان نجد ازدهار الملاحم انما كان في تلك الفترة التي التقى فيها الشعب العربي بالمغلوب ، وهي المعروفة عند المؤرخين بفترة الحروب الصليبية فقد اهتز فيها الوجدان العربي هزة قوية دفعته الى ان يعتصم بعصر البطولة فانتخب من الفرسان الجاهلين سيرة « المهلهل » « او الزير سالم » وسيرة « عنتر بن شداد » وسيرة « سيف بن ذي يزن » وطالت الحروب الصليبية ، وكانت الوقائع فيها مستعرة الاوار ، وغلب غير العرب على الحكم ، فازداد اعتصام الوجدان العربي بالسمة المشتركة فيه وهي العروبة ، وتخير تلك الهجرات القيسية المتتابعة من بلاد نجد ، وانتشارها في الوطن العربي ، فقص اثرها الى العراق والشام ومصر وشمال افريقية ، اي من الخليج الى المحيط ، ولم يكن همه ان يحكى عصبية قيسية او ربيعية ... مضرية اوقحطانية ، وانما كان همه الاول ابراز العروبة ، حتى اذا انتهت الحروب الصليبية ، وقام بتصفيتها الظاهر بيبرس بعد صلاح الدين جعلوه محور نوع آخر من قصص الفروسية ذات الطابع الملحمي ، وكما ان المتفنن ينتخب من احداث التاريخ ، ويعطى نفسه بعض الحرية في تعديل الاحداث فان الشعب يفعل ذلك ايضا ، لان الوقائع لا تعنيه في ذاتها بقدر ما تعنيه دلالاتها ونتائجها

ومن هنا راينا الشعب يتحرر من التاريخ ، ويتخلص من نطاق الزمن ، وحد المكان ويجعل بعض الابطال الجاهليين ابطالا اسلاميين . ولم يكتف بذلك ، بل دفعته عروبته ونزعته الى التحرر ، الى ان يجعل الظاهر بيبرس منتسبا الى العرب وان يفل قيده كعبد مملوك وان يرهص بما سوف يقوم به على لسان الملك الصالح ايوب ولى الله المجذوب .

الملحمة والقومية العربية

تحكي الملحمة الشعبية اذن الوجدان القومي العربي ولقد ازدهرت في اواخر الحروب الصليبية بعد ان هدأت سورة هذا الوجد ان وتكاملت الوقائع في خلده ، ولذلك رايناهذه الملاحم تصبح زادا للامة العربية كلها على اختلاف اقاليمها ولهجاتها . وليس من شك من انها تاثرت هذه اللهجات وتلك الاقاليم بعض الشيء ولكنها احتفظت بجميع مقوماتها ، بل احتفظت بجميع احداثها . ورواج بضاعة المنشد المحترف يدل في ذاته على احساس المجتمع العربي بشخصيته امام المجتمعات الاخرى ، ذلك لان تنقله بهذه الملاحم بين الحضر والريف والبادية يدل على فاعلية الملحمة ، وعلى قيامها بوظائفها الحيوية في اذكاء الشعور بالعروبة من ناحية، ويعمل على انسجام المجتمع العربي كله من ناحية اخرى، ويشحذ فيه نوازع الدفاع والمقاومة ، ويدفعه الى ان يستعيد امجاده .

ولعل حرفة هذا المنشد المحترف تصور وحدها ، بما اتخذت من مراسيم وتقاليد الطابع العربي لهذه الملاحم ، فهو يبرز في المواسم والاسواق والمجتمعات العامة ؛ ويتخذ في الغالب الاعم الزي الشرقي العربي؛ ويتوسل بالانشاد والتمثيل والسرد ، ويستعين بالآلة المعروفة برباب الشاعر .

وليس هذا هو كل شيء ؛ بل انه يستحضر كل بطل امام المستمعين ؛ بان يقدم نفسه بصفة « الفتي » وما نظن انه كان يقصد مصطلحا صوفيا بمراسيم سرية وانما اراد ان يجسم الفتوة العربية كما عرفت في العصر الجاهلي والاموي وبيئات البداوة ؛ ويردف ذلك بان يذكر البطل اسمه ، وهو معروف مشهور عند الناس يحبونه لانه مثالهم ونموذجهم ويقرن ذلك بنسبه الى قبيلته العربية « يقول الفتى ابو يزيد الهلالي سلامه » وقد تمدا النسبة الى القبيلة قبل الاسم « الخفاجي عامر » ولهذا دلالته على ان العروبة هي الباعث الاول ؛ والعاطفة المشتركة . فان اضفنا الى ذلك ان المنشد المحترف يبدأ سمره بالصلاة على النبي ، باعتباره المثل الاعلى

للانسان من ناحية وباعتباره قد اصطفي من بين العرب من ناحية اخرى، ولاحظنا ان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يردف دائما بما يدل على عروبته ادركنا قوة هذا الباعث وهذه العاطفة المشتركة .

وما دامت الملحمة تمثل موقف الشعب العربي من سائر الشعوب ؛ فان البطل فيها يتخذ مكان الرياسة والقيادة والتوجيه ، ونحن نعلم ان الشعب اعتصم بعصر البطولة وانتخب من الفرسان الاوائل ابطاله ، ومن هنا انعكست صورة الرياسة العربية في المجتمع القبلي على الملحمة ، فلقد كان المجتمع ابويا او بطريقيا او هيراركيا كما يقول اصحاب الاجتماع وليس المهم عند الشعب الا ان يكون ابا لقومه على التحقيق النفسي . ولما كانت الملحمة تجسم نزعتين تحريريتين؛ اولاهما الدفاع عن الذات العامة امام عدو مشترك والثانية الدفاع عن كرامة الفرد باعتباره واحدا من جماعة عزيزة على نفسها وعلى آحادها ، فقد راينا البطل يناضل العدو ويحكي بطريق غير مباشر ما ينبغي ان تكون عليه العدالة الاجتماعية .

الفروسية

وتذكر كتب التاريخ دائما ان الفروسية تطمئن انماط الحياة ونظام قائم برأسه من نظم المجتمع غلب على اوروبا الغربية في الجزء الثاني من القرون الـوسطى ... وكانت بواكير هـذه الفروسية في القرن الحـادي عشر ، وبلغت ذروتهـا في القـرنين الثـالث عشر والـرابع عشر ثم اخـذ نجمهـا في الافول نذيرا بظهور اساس آخر للحياة، عرف به عصر النهضة او عصر الاحياء وكانت هذه الفروسية الاوروبية تقوم على دعائم ثلاث هي : الحرب والدين والحب وكانت الحلقة التي تصل الدعامة الاولى بالثانية ، اي الحرب بالدين ، هي الحروب الصليبية ... والتي تصل الثانية بالثالثة اي الدين بالحب ، هي الولاء للعذراء ومحاولة البحث عن شبيهة لها تكون حافزا للفارس على اكتساب الفضائل في السلم وركوب الاهوال في الحرب ولكن الفروسية العربية اقدم من هذا عهدا وارسـخ قدما ؛ حتى اننا لا نستطيع ان نتبين بداياتها على التحقيق او الترجيح ... فـان الفرس كان عنصرا هاما في الحياة الجاهلية ، تقاس به الثورة والقدرة على السوء .. كما نجد الفارس يبرز في المجتمع العربي الجاهلي ، ويصبح المحور الذي تدور عليـه حياة القبيلة باسرها . وكثيرا ما اجتمعت فضائل الفروسية بفضائل الشعر ، فراينا الرجل منهم يدعى « الفارس الشاعر » وكتب الادب زاخرة باخبار هؤلاء الفرسان الشعراء

نجدها في كتاب الاغاني ، كما نجدها في العقد الفريد وفي غيرها من دواوين الادب الجامعة لايام العرب واشعارهم . ومن اليسير ان نتبين الدعامتين اللتين قامت عليهما الفروسية الجاهلية وهما ـ الحرب والحب . . فان ايام العرب تصور ما اشتجر بين القبائل من وقائع ، كما ان تقاليد الشعر التي جعلت الحب بين الموضوعات الاساسية في القصيدة العربية وقرنته بغيره من اغراض الحماسة ، تجعلنا نـؤمن برسوخ هذه الدعامة . ومن يعكف على دراسة الملاحم الشعبية يجد انها مطبوعة بطابع الفروسية في كل جزء من اجزائها فان الفارس هو المحور الذي تدور عليه حوادث الملحمة او السيرة كلها ، فابو زيد هو البطل في سيرة بني هلال ، لانه هو الفارس الاول فيها ، وقد تعقبته الملحمة منذ حملت به امه السيدة خضرة الشريفة ، ومنذ اخرجت من ديار زوجها الى ديار بني الزحلان وقصت مراحل صباه وتربيته وشغفه بالفروسية وحبه للافراس ونزوعه الى المبارزة ، ومبادرته الى نجدة الاهل وحماية العشيرة . . . وما تزال به حتى تضطر القبيلة الى التفكير في الهجرة فيردد لها الطريق نحو المغارب مع الفتيان الاوائل في القبيلة ؛ وهم مرعى ويحيى ويونس ثم تروي اسرهم وفرار ابي زيد وعودته الى قومه واستنفارهم لتخليص الاسرى وتفصل الكلام في مراحل السير ووقائع الحرب الى ان يتم لبني هلال النصر .

وجميع الابطال الذين يشاركون ابا زيد في هذه السيرة من الفرسان ولعل اقواهم هو دياب بن غانم الذي يصور حب الفارس لفرسه واكبارها والاعتزاز بها وعدم التفريط فيها بل انه يراها خيرا من الولد والاهل . ومن السيرة فصل رائع يمثل هذا الحب القوي بين الفارس والفرس . . لقد تعرضت القبيلة كلها لمكروه شديد في صعيد مصر ؛ ذلك انها واجهت خصما عنيدا ؛ هو المضي بن تقرب الذي اشترط لمهادنة بني هلال والسماح لهم بالمرور ان ياخذ فرس دياب واسمها الشهبة فيلبيء دعر غمه القبيلة على الاذعان وتاخذ الفرس منه كرها ؛ ولكن الفرس تكره ان يمتطيها غير صاحبها ؛ فتلقي بالمضي بن تقرب وتعود الى دياب الذي يقربها غيثا . . . ولما اشرف بنو هلال على غايتهم ، ماتت الفرس . . . واحتفل القوم بدفنها احتفالا مشهودا كما يحتفل بدفن العظماء والابطال واخذتهم دياب يافل بعدها رويدا وهو لا يفتأ يذكرها فاذا بلغته الوفاة اوصى ان يدفن الى جانبها .

وقوام البطولة في هذا الاطار هو الشجاعة وهي صفة مشتركة بين جميع

الفرسان ، وليس بين الراشدين في الجماعة من يخرج عن زمرتهم اللهم الا من تقعد به الشيخوخة او يحول العجز بينه وبين مقتضياتها وشجاعة الفارس تتفرع عنها خلائق اخرى عرف بها العربي في حياته كما سجلتها ملاحمه الشعبية كالعفة والنجدة والاباء والكرم .

وابرز هذه الخلائق الاباء الذي يتسم بمقاومة الظلم اياكان . ولما كان الضيم الفردي يجر دائما الى نجدة جماعية قد كان من الطبيعي ان تستشعر الجماعة كلها العزة في نفسها وفي افرادها والا تتساهل فيما يتعرض له الفرد مثله في ذلك مثل الجماعة كلها اذا تعرضت لمن يتحيفها او يعمل على الانقاص من قدرها او الاغارة عليها .

وحرصت الملحمة الشعبية على صفة الشجاعة في البطل بكل ما تنتظم من خلائق واكدتها بان خلعت على عدوه الخصلة نفسها لتجعل من هذا العدو المكافيء لبطلها في الكر والقوة ومضاء العزم كما انها سايرت الحياة ومنطق الاحداث عندما جعلت النزال بين الابطال نزالا بين الاقران ، والوقائع بينهما لا تنتهي في اللقاء الاول او الثاني وما اكثر المعارك المتوازنة بينهما . وربما رجحت كفة العدو في معركة او اكثر تأكيدا لهذه الموازنة في الشجاعة بين البطل وعدوه ، وكأنما ارادت الا يحارب البطل الا بطلا مثله ، وان كانت في بعض الاحيان تجرد العدو من بعض الخلائق التي تنتظمها الشجاعة ما عدا الباس والمضاء في الحرب .

ولم تغفل الملحمة الشعبية جانب « العقل » في بطلها الفارس لانها ادركت ما يدركه الشعب من ان الباس والقدرة على الحرب لا تكفيان وحدهما في احراز النصر ، فجعلت البطل قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، لا يتحرك لاول بادرة بل يؤثر التدبير لحل المعضلات العظيمة ، والاحداث الجسيمة . ومن هنا كان الذكاء ملازما للشجاعة ، وكانت الحيلة ملازمة لثقافة الحرب . وما من بطل في الملاحم الشعبية لا يصطنع الحيلة التي تصل احيانا الى التفكر ، والى ما يشبه خدع الحرب فلقد كان ابو زيد الهلالي مشهورا بحيلته ، اشتهاره بالشجاعة والمثل السائر يفسر هذه الظاهرة « سكة ابو زيد كلها مسالك » وكان جمال الدين شيحه في سيرة الظاهر بيبرس يعتمد على التفكر ، والعبارة المشهورة « ملاعيب شيحة » ثم « جراب الحيل » تؤكد لذلك .

واذا كان مجتمع الفرسان في اوروبا ابان القرون الوسطى يعرف المراة ويتوسل بها في تجسيم مثله العليا ، واذكاء شجاعته ، فان مجتمع الفرسان من العرب كما صورته الملاحم الشعبية لم يقف من المرأة هذا الموقف بحيث يجعلها عنصرا مساعدا خارج اطاره، ولقد احتفل الشعب بالمرأة كعنصر ايجابي مشارك في الملحمة ، ففي سيرة بني هلال نجد الجارية تنزل زوجها وولدها لتقوم بواجبها العام في الاستنفار للحرب ثم للتشجيع عليها ، ثم للعمل على ضم الصفوف اثناءها . ولم تكتف بذلك بل شاركت في التدبير والحيلة واعتصمت بعفتها ؛ ولم تتزوج الماضي ابن مقرب في صعيد مصر بل انضمت الى قومها ؛ وكانت من الاسباب التي اعانت على بلوغ الغاية واحراز النصر . وقد يستعين البطل بالحب او يعينه القدر بالحب كما حدث لعنترة الذي حقق وجوده بحافز الحب ؛ وكان لا بد له ان يشتري حريته بعمل تتطلبه الجماعة وهو الدفاع عن الحمى .

وهناك نوع عبقري من العاطفة ابرزته الملحمة الشعبية لا تقوم على العاطفة بين الرجل والمرأة ، وهي عاطفة الزوجية او اللذين يصبوان الى ان يكونا زوجين انها عاطفة الامومة ولكنها امومة من نوع عبقري ؛ فقد يحتاج البطل في حداثته وفترة تكوينه وتهيئته وهو مبعد عن اهله الى قلب يرعاه ويحدب عليه ؛ فيجد في احدى السيدات الفضليات من تتوسم النجابة فيه ؛ ومن تقرا في وجهه البطولة فتتبناه : وتاخذ نفسها برعايته وتربيته وتهيئة اسباب العمل له ؛ ولا تبخل عليه بكل ما يحتاج اليه الفارس من ثقافة عملية كما حدث للظاهر بيبرس .

وكانت ملاحمنا الشعبية العربية واقعية في تصوير المرأة ولم تكن مثالية كما هو الشان بالملحمة الغربية في عصر الفروسية؛ فابرزت مشاعرها وخوفها على زوجها وفرقها من النساء الاخريات ولكنها كانت دائما عندما يجد الجد تؤثر الصالح العام على العاطفة الخاصة . ونحن نلاحظ ان المرأة كانت عنصرا هاما في بعض المعارك فحبها يعين على النصر واختطافها يخلق المعركة : وهي اذا اسرت كانت مثالا على الشجاعة وعلى ما ينبغي للمراة العربية او الفتاة العربية في نظر العرب حفاظا على السر وعلى العرض .

البطولة والقدر

قلنا ان البطل الملحمي لا يصارع القدر ولكنه يحقق الاحداث التي تريدها الاقدار فهو من هذه الناحية رجل الاقدار ، وهو مكلف برسالة سامية ذات طابع قومي وهو يعرف هذه الرسالة معرفته لنفسه ويجد في تحقيقها واثقا من النصر . وتؤكد هذه المعرفة عنده ارهاصات وتنبؤات ... يؤكدها العرافون على صفحة الرمال ويؤكدها المنجمون من صفحة السماء ويؤكدها العارفون بتاويل الاحلام بل ان سائر الافراد في الملحمة يميزون البطل ويعرفونه وقد ينتظرونه وتاتيهم المعرفة هم ايضا من العرافين والمنجمين ومفسري الاحلام . وقد تظهر الحوادث في بعض الاحيان غير ما يعرفون ويتوقعون ؛ فلا يرتابون ؛ لان القدر قد خط في صحيفته ان يكون النصر على يد البطل دون غيره . وهي قاعدة مطردة في الملاحم الشعبية كلها .

فالطائر الاسود الذي يتغلب على سائر الطير امام السيدة خضرة الشريفة يشير الى ما سوف يكون لهذا الغلام الاسمر الذي خرجت بسببه من ديار زوجها ؛ وتركت وحيدة في البادية تحت رحمة الاقدار . وفي مقدمة سيرة الظاهر بيبرس لوح كالواح الشطرنج عليه صحائف من ذهب تمثل الشر والعدو ؛ وتجسم الكيد والخسة واللؤم والطمع ؛ وتعقب كل واحدة منها صحائف من فضة تمثل الخير والنقاء والعفة ؛ والحياة صحيفة صفراء تعقبها صحيفة بيضاء ؛ فهي متداولة بين الشر والخير وعلى الاولى سجلت وقائع العدو وعلى الثانية سجلت وقائع الابطال المسلمين والعرب ، والنتيجة معروفة منذ اللحظة الاولى ، فهذه لوحة القدر تداول الحياة بين الفريقين ، ويكون الكر ، والفر والتفكير والتدبير والنصر آخر الامر للخير وانصاره .

ومع ان البطل يجسم الفضائل المعروفة المتمثلة عند قومه ، وتوصف شجاعته في شيء من المبالغة فانه لا يخل بابعاد الصورة وما يجب لها من تناسب ، الا انه يتوسل احيانا بما فوق الواقع وما فوق الطبيعي . وهو ما دام على الخير فالاولياء يعينونه بكراماتهم وينقذونه من المآزق ويطوون له المكان والزمان ويفكونه من الاسر ويكشفون عنه المحجوب وقد يتوسل بادوات عجيبة لها قوى خارقة كالاسلحة الخاصة والدواب الخاصة وبسط الريح وما الى هذا بسبيل .

ويجب ان نذكر ان الاساطير عندما تفقد وظائفها الحيوية تحل عقدها وتصبح متفرقات من الحكايات التي يشيع فيها السحر وما اليه . وهذه العناصر نجدها في الملحمة بعد ان برئت من اطارها الاول وزحفت في تضاعيف الاحداث ولعل بعض الاشخاص وبعض الوقائع امتداد لاساطير سابقة تحولت من تفسير المظاهر الطبيعية والاجتماعية بالعقل البدائي الى تسجيل الامجاد القومية تعبيرا عن الوجدان العام ومع ذلك فالبطل في الحكايات الشعبية قد يمثل فضيلة او صفة تتطلبها الجماعة وتحتاج اليها ولذلك نراها وقد انحدرت الى سفح الكيان الاجتماعي واصبحت سمرا ترفيهيا للدهماء او وسيلة تربوية للصغار .

خاتمة

ونحن نعيش الآن في عصر يمكن ان نطلق عليه «العصر الملحمي» وموقفنا من سائر الاقوام يحتاج الى تاكيد البطولة كما يتمثلها وجداننا . واذا كانت ملاحمنا وحكاياتنا الشعبية تنحسر امام التدوين والترجمة ووسائل الاتصال بالناس كالطباعة والصحافة والاذاعة والسينما فان من واجبنا ان نعرف ان وجداننا القومي موصول الحياة واننا لا ننشيء وجدانا جديدا وكلنا نلاحظ تطور وجدان حي فعال ثم نعمل بعد ذلك على معاونته ليسير في طريقه المحقق لوجوده . ولذلك كان من الضروري ان نحتفل بالبطولة في الادب الشعبي ، او بتعبير آخر ان نحتفل بالملحمة الشعبية ؛ فنبعثها ثم نعدل فيها تعديلا يصفيها من العصبيات الصغيرة ؛ ويؤكد الغاية القومية منها ويجعل اساس التعبير في الدرامة والقصة والشعر يقوم على الملحمة البطولية القومية . وهي تصلح في الوقت نفسه بعد التصفية والتعديل لان تفيد الموسيقى وسائر الفنون كما تصلح في تربية الناشئين .

● حذار ...

جرت محادثة بين بعض الادباء من بينهم الشاعر صالح جودة والاستاذ عبد القادر القط ... فقال الاول للثاني : يا دكتور فار ! فرد الدكتور عبد القادر بقوله : « لا انا دكتور قط »

صرخ بلادي

بقلم محمد بحر العلوم
(العراق)

باسم شعب شامخ يرفع رايات البطولة
والرجولة ،
باسم شعب هشم السجن ،
وحنى راحتيه
بدم الثار
وروى ناظريه
بسنى الفجر الذي مزق ليل الظالمين
باسم من ذر الحياة
في بلاد الراقدين
باسم من انقذنا من مخلب الطاغي الاجير
من ايادي الطامعين
باسم الاف من العمال في كد وضيم
واناشيد السعاده
رقدت مشلولة الانغام صرعى
في وجوه البائسين
وشفاه الكادحين
وعيون الجائعين
باسم فلاح ضعيف ذر في الحقل فؤاده
وسقاه ورعاه
واذا بالسيد المخمور يمتص رؤاه

باسم كوخ واهي الاضلاع ، عاري الجنبات
يجرح القصر به مع الحسرات
باسم الاف الضحايا وقرابين النضال
باسم شيخ يزرع الدمعة في ذكرى بنيه
شهداء المعركه
باسم أم عاجز منهوبة الاحلام ثكلى
خمدت اضواءها في المعركة
باسم هذى كلها
من جموع البشرية
في العراق
ابعث اللحن الجديد
ونشيد الاخوية
للبلاد العربية
وطني الغالي ، ونبع العبقرية
واعيد الاغنيه
في صباح زاهر الاضواء نشوانه طليقه
بعد ان كانت سجينه
ودفينه
رغبة للظالم الجاثم في قلب بلادى
واياديه السقيمه

عشت في الحقل تجتر جقوده
ومضت تغرس في الدرب قيوده
وسـدوده
خسأت اماله
لا حدود في ديار العرب
لا سدود تحجز النور عن الارض الحبيبة
فنضال الثائرين
جذوة تلهم ظل المعتدين
وكفاح الوطن المسلوب عنوان شعور الصامدين
ولنا في الدفقة الحمراء في ارض الجزائر
منبر ينشر للدنيا المآثر
ويدوي بالبطولات ويشدو بالمفاخر
ذهبت ايامنا السوداء لا رجعة فيها
روعت في ظلها الشمس بدنياها الرحيبة
وخبت فيها امانينا الحبيبه
كانت الاحرف نقمه
شنقوها في ثغور الناس
والناس خرافه
عندهم
عرفهم
ان يهدم المرء شعوره
وضميره
وغلى الوعي باعماق النفوس
فعلت شعلته
شعلة اذكت شعور الصابرين
وغدت تشرق درب الصامدين
في عراقي
وتبدى الفجر عن ثوره احرار بلادي
واذا الاسياد بالامس حطاما في الشوارع
وتلاشى الحلم القارق في خزي المطامع
وبدت في الشعب نشوه
اي نشوه
نشوة النصر على العهد البغيض
فلكم منهم تحية
ولكم من شعبنا الثائر الاف التحايا الاخويه
ولمن يرفع للاداب شعله
في (شواطيء البحر) كالشمس المضيئه

(النجف ـ العراق)

◆ الشعراء ... والضبط

عند ما نودي على صديقنا محمود الباجي في حفلة الشاي التي اقامها وفد الكويت لتكريم الادباء قال وهو يتقدم نحو المكرفون بانه لن يأخذ اكثر من ثلاث دقائق ، وقد صدق الاستاذ محمود الباجي ... وكانت هذه اول مرة ينفذ فيها شاعر ما يقوله !

كلمة الدكتور بشر فارس

السكرتير العام للمجمع العلمي بالقاهرة

شكرا لحكومة الكويت ان جمعت نخبة من الادباء تحت قبة فضلها وغيرتها على شؤون القول وقضايا الفكر •

هنالك مباحث وتعليقات ومناقشات تستحق التقدير والاكبار احيانا . على ان بين يدي ملحوظات على المؤتمر • وقد بلغ غايته ، ربما احسن الالتفات اليها عن وضع القرارات واقتراح التوصيات • ولن أداري فمن وراء المداراة نفاق •

استجدى بعض المتكلمين تحمس السامعين وبخاصة عامة الجمهور ، هكذا يجتلبون التصفيق من طريق الجلجلة في القاء الشعر او من طريق ترديد الفاظ ترد في جو السياسة وتظل تنساب في تصريحات وتوصيات كاننا خارجون من الجلسة نافرين الى غزو المريخ لا الى تناول قدح شاي او مشاهدة مسرحية كلها غرام •

ما لنا والسياسة في هذا المؤتمر ؟ اليس هو مقاما لوجه الادب ؟

مما يؤسف له ان السياسة دست منذ الجلسة الاولى • اجل للاديب ان يعرض السياسة ، ولكن يكون هذا من باب التلطف في اطار بياني ، فما هو بصحفي ولا بخطيب يستصرخ لمة من الناس • ولم لا ينهج نهج ابى العلا مثلا في براعة التلويح حين يقول في حكام زمنه ، وما ابعدهم عن حكام اليوم ! :

جلوا صارما وتلوا باطلا   وقالوا صدقنا فقلنا نعم !

اذن ضاع بعض غرض المؤتمر بسبب خلطه السياسة بالادب بقوة ! ولمسنا ايضا خلط الادب بالعاطفة الجامحة وذلك عدوان على قواعد المنهج في البحث ، ثم انا راينا بعض الباحثين يدخلون الى الموضوع ويخرجون منه وهم على حافة من جوهره ، لم يعرضوا الا للعرض ، واخرين يسهبون سواء اطالوا الاستشهاد بالشعر حيث يكفي التنويه بما قرأناه من دواوين مشهورة او غالوا في عرض كتب فاضاعت التفاصيل على السامع

زبدة المطلب . وقد يكـون الاسهاب هنا او هنـاك ذريعـة الى حشو بحث بضـاعته الفلسفية هزيلة وفي الجملة ان النظرة الفلسفية بصنوفها وهي من اركان الادب في هـذا العصر ما كادت تحظى بتعيب . والغريب بعد هذا ان الانشاء من حيث هـو ابتداع في المعنى وتوليد في العبارة لم يظفر بلفتة الا في الندرة مع ان الكلام انمـا يجرى في الادب فهل انحرفت اصالة اسبابه ؟

هذا ورأينا بعض الباحثين لا ينقادون للاخذ والنقاش في يسر افغاب عنهم مثل الاقدمين : من الف فقد استهـدف .

ومن بعض الباحثين من بدا غير متوثق من الموضوع المتناول كانه يلج في اطرافه وهو مستطرف غير محترف والمستطرف ترجمة لكلمـة *amateur* ، اصبتهـا عند ابـن سينا ويقول الناس اليوم : هاو لا غاو .

اما سائر المتكلمين من معلقين ومناقشين فقد برز بعضهم وليس بين يديه مـا يتقدم به المبحث الملقى كانه يصحح خطأ باسانيد او يؤيد رأيا بشاهد مستأنف لا بشاهد مماثل نحو مـط سلسلة القصائد المتقاربة . ولعل احدا تسرع فاخذ على باحث قـولا كمن اخذ على بعضهم مدح ابن هانىء للمعز (... فانت الواحد القهار) وفات الآخذ ان الكلام ههنا موجه الى خليفة فاطمي على مذهب الاسماعيلية ومن هذا المذهب انبثق قول الشاعر وبه انتظم

ثم ان لهجة الخطابة انبثت على اكثر الالسنة ولسنا هنا في سوق عكاظ بـل في حلقة استقراء ، وتقريري هذا لا يصلح معذرة لنفر معدودين حـلا لهـم ان يعبثـوا بالصرف والنحو وسلامة متن اللغة

من ضياع الوقت الثمين ان يأخذ الباحث في الاعتذار عن عجزه عن الاستقصاء والايفاء ، والمعلق والمناقش في الاطراء والثناء او التنصل من تهمة نقده اذا هو اقبل على النقد

نحن في مجال اخذ ورد ، يناقل بعضنا بعضا مسائل عرفان ، هذا مجـال سريـع الحركة نحن لسنا بسبيل مجادبة حديث يدور بين مترفين

وخاتمة القول ان مؤتمر الادباء يحسن بالمشاركين فيه ان يتهيأ جميعهم لـه من حيث هم ادباء ، والاديب من ترفع عن النجاح الرخيص وعمل للثقافة العليا وحدهـا ارضاء للمتحرجين من اهل الفكر والذوق وارشادا للجمهور بصدق محض .

وتجاهنا مؤتمرات مقبلة ، فعلى بركة الله !...

أصداء الفكر

• مقررات المؤتمر

أولا : في التأليف والنشر

أ) يدعو المؤتمر جميع المؤلفين بوجه عام الى العناية بموضوعات البطولة العربية وابراز معانيها السامية وغاياتها النبيلة . ويدعو المؤرخين الى تاريخ البطولة العربية في مختلف ادوار التاريخ العربي وفي مختلف اقطار العروبة ؛ والى ابراز خصائص هذه البطولة والوانها المختلفة وما رافقها من عوامل الكبت أحيانا وما تحلت به من مزايا الانطلاق .

ويدعو الادباء المنشئين الى ابراز صور هذه البطولة في روائع نثرية وشعرية (رواية ؛ قصة ؛ مسرحية ؛ ملحمة)

ويدعو المتخصصين منهم بادب الاطفال الى العناية بتثقيف الطفولة عن طريق التاريخ العربي بكل ما يذهب النفس من المثل العربية العليا . ويدعو بصورة خاصة الى ابراز بطولة المرأة العربية اما ومواطنه وصاحبة راي وحاملة سلاح .

ويدعو المؤتمر ادباء العرب الى استيحاء الادب الشعبي فيما يصوره من صور البطولة وذلك تاصيلا للادب واذكاء للعبقرية القومية كما يدعوهم الى العناية بنقل هذه البطولات من اللهجات الاقليميه المتعددة الى اللغة الفصحى توثيقا لروابط القومية العربية .

ب) يدعو المؤتمر جميع الناشرين بوجه عام « دور النشر ؛ دور الاذاعة مسارح التمثيل مخرجي الافلام السينمائية » الى العناية الفائقة بالانتاج البطولي بحيث تكتمل روعة التاليف بروعة الاخراج الفني .

ثانيا : في التشجيع

يدعو المؤتمر الحكومات العربية الى تشجيع التاليف البطولي ونشره بمختلف وسائل التشجيع ومنها :

أ) تخصيص جائزة سنوية لكل من الفنون الآتية : الشعر . الرواية .

القصة . المسرحية . الملحمة . بحيث يجاز احسن انتاج بطولي في كل من هـذه الفنون الادبية .

ب) تخصيص اعتماد سنوي في الموازنة لمساعدة مسارح التمثيل .

ج) تشجيع دور النشر بشراء نسخ كافية من المطبوعات الناجحة في ادب البطولة وتوزيعها على المكتبات العامة في البلاد العربية وفي البلدان الاجنبية .

د) بناء المسارح للتمثيل او المساهمة في بنائها .

وبشكل عام تقدير الانتاج البطولي وتقدير نشره واذاعته .

النشر والتوزيع

القسم الثاني : في الكتاب العربي

١) يوصي المؤتمر بانشاء شركة قومية لتوزيع الكتاب العربي على نظـام الشركات المساهمة . مقرها الرئيسي القاهرة براس مال كاف .

٢) في سبيل اطلاق نقل الكـتاب العربي يوصي المؤتمر بان يطبق نظـام البطاقات « البونات » المتبع بمنظمة اليونسكو وتقوم هذه البطاقات مقام العملة في استيراد الكتب وتصديرها وتتولى الجامعة العربية دراسة هذا النظام من الناحية الفنية والمالية كما يوصي بان تخفض رسوم الجمارك على الورق المستعمل لطبع الكتب

٣) يوصي المؤتمر بمراقبة ومكافحة الكتب وغيرها من المطبوعات الـتي تتعرض لتشويه تاريخ العرب او تبعث على التشكيك في قوميتهم باية لغـة كانت ومن اية جهة وردت .

٤) توصية بالغاء اذون الاستيراد عن الكتب في جميع البلاد العربية مع تسهيل نقل المبالغ التي يستحقها المؤلفون عن مؤلفاتهم . التي تنشر في بلد عربي غير بلد المؤلـف .

- توصيات لجنة الترجمة

اولا تنشأ بالادارة الثقافية بجامعة الدول العربية لجنة لتنسيق اعمال الترجمة وتقوم بالاتصال بجميع الهيئـات العربية والدولية التي تعنى بهـذا الموضوع ، وخصوصا في الامم التي اقتضت نهضتهـا الحديثـة العناية بشؤون الترجمة

ثانيا فيما يختص بمهمة اللجنة المقترحة يوصي المجتمعون :

١ ـ ان تكون الترجمة اساسيا نقل الروائع العالمية من مختلف الاقطار الى اللغة العربية ، ونقل روائع الادب العربي الى اللغات الاجنبية .

٢ ـ المبادرة بنقل ما كتبه ادباء العرب باللغات الاجنبية الى اللغة العربية مع العناية بآثار ادباء الجزائر خاصة .

٣ ـ ان تعمل اللجنة على تصحيح اخطاء الترجمات السابقة ،اما باعادة ترجمتها او بالاستدراك عليها حسب مقتضى الحال ، ونخص بالذكر ما نقله بعض المستشرقين من الادب العربي

٤ ـ نشر فهرست تفصيلي للترجمات السابقة من اللغات الاجنبية الى العربية او العكس

ثالثا توصي اللجنة جميع الدول العربية بان تنشأ في كل منها هيئة او ادارة تختص بشؤون الترجمة الادبية ، تخصص لها ميزانية مناسبة ، كما ترصد في اعتماداتها جوائز تشجيعية سنوية لاحسن الترجمات مع ايجاد اتصال بين هذه الهيئات وبين لجنة التنسيق في جامعة الدول العربية

رابعا اعانة الحكومات لدور النشر في نشر ترجمات الكتب التي تنقص المكتبة العربية ، والتي لا تستطيع دور النشر ان تقوم بنشرها لاعتبارات تجارية ، وبناء على هذه المعونة تقوم دور النشر باخراج الكتب اخراجا لائقا وباثمان معتدلة .

خامسا ترى اللجنة ان تشمل التوصيات العامة للمؤتمر الاهابة باعضائه ـ ومن ينضم اليهم ممن يؤمنون باهدافه ـ ان يلاحقوا توصيات المؤتمر للعمل على تنفيذها بكل الوسائل المشروعة ، على ان يقوم المؤتمر بتبليغ هذه التوصيات للحكومات وجامعة الدول العربية

سادسا تقترح اللجنة ان يكون موضوع إنشاء (بنك ثقافي عربي) من الموضوعات الجديرة بالبحث في مؤتمر تال ، ويقوم هذا البنك بتمويل المشروعات الثقافية في البلاد العربية ، والمساهمة في طبع ونشر الكتاب العربي على نطاق واسع .

● لجنة التراث

يوصي المؤتمر جامعة الدول العربية بتوسيع اختصاصات معهد المخطوطات الموجود بها بحيث يشمل خدمة التراث بتحقيقه ونشره ، كما يوصي بجمع الفهارس المكتوبة لهذا التراث من جميع المكتبات العامة والخاصة في كل قطر من الاقطار . ويوصي المؤتمر ان يدرس معهد المخطوطات تقرير لجنة التراث للاستعانة به .

◆ لجنة المجلة

١) اصدار مجلة عربية جامعة تعنى بقضايا الوطن العربي وتعزيز الوعي القومي وتعنى بشؤون الفكر قديمها وحديثها في مختلف البلاد العربية ، كما تعنى بابراز القيم الانسانية ونقل روائع الفكر العالمي ، مع العناية بالنشاط الثقافي الحديث وبالتعريف بالكتب الجديدة ، ومباحث النقد الادبي .

٢) يتولى المكتب الدائم لمؤتمر ادباء العرب الاتصال عن طريق جامعة الدول العربية بهذه الدول لرصد ميزانية خاصة لتمويل المجلة تسهم فيها الجامعة .

٣) تصدر المجلة شهريا في مقر المكتب الدائم لمؤتمر ادباء العرب بالقاهرة .

٤) تتألف هيئة فنية للمجلة تمثل فيها المكاتب الفرعية لمؤتمر ادباء العرب ما امكن ان تكون مهمتها اختيار لجنة للاشراف على اصدار المجلة في القاهرة ، وتغذيتها بالمواد من مختلف البلاد العربية .

٥) يتكون رأسمال المجلة من مبلغ كاف .

٦) يوصي المؤتمر المكتب الدائم لمؤتمر ادباء العرب بالسرعة في السعي لاصدار المجلة قبل الدورة القادمة للمؤتمر .

◆ لجنة حقوق المؤلفين

يوصي المؤتمر بالدعوة فورا الى انشاء اتحاد للادباء في كل دولة عربية . على ان يكون هناك اتحاد عام يمثل هذه الاتحادات جميعا ، ويكون في مقدمة غاية هذه الاتحادات ، وعلى الاتحاد العام العمل على اصدار قانون لحماية حق المؤلف ، مع الاستئناس بالقانون رقم « ٣٥٤ » الذي صدر بجمهورية مصر سنة ١٩٥٤

والى ان تقوم هذه الاتحادات يوصي المؤتمر جميع الدول العربية بان تعمل على وضع اتفاقية بين الدول الاعضاء لحماية حق المؤلف ، على ان يكون وضع هذه الاتفاقية عن طريق جامعة الدول العربية .

الفهرست

العدد الخامس - فيفري - ١٩٥٩ - السنة الرابعة

الفكر
مجلة ثقافية

تصدر بتونس شهريا

مؤسسها ومديرها المسؤول

محمد مزالى

الادارة : ١٣ نهج دار الجلد ـ تونس

تليفون : ٧٧٨ ٢٦٠

الحساب الجارى : ٧٦٩ ٣٣ تونس

العنوان : صندوق البريد ٥٥٦ تونس

• تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى اوت وسبتمبر

• قيمة الاشتراك السنوى :

اشتراك عادى فى تونس دينار و ٢٠٠م

اشتراك الأنصار ٣ دنانير

فى المغرب وليبيا دينار ونصف

• الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة او يصب فى حسابها الجارى

• المراسلات تكون جميعا باسم : مدير مجلة الفكر صندوق البريد عدد ٥٥٦ تونس

• الرسائل لا ترد نشرت أم لم تنشر.

EL FIKR revue culturelle mensuelle 4e année N° 5 — Février 1959

طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم ـ ٢٠ نهج المالطيين ـ تونس